الملخص

تهدف الدراسة الإجابة عن أسئلة البحث، والتي أهمها: ما سر تعدد المقسم به تارة، وإفراده تارة أخرى؟ ولم آثر البيان القرآني لكل مقسَمٍ عليه مقسَمًا به دون غيره؟ وما جهات التناسب بين المقسم به والمقسم عليه في فواتح سور الحزب الأخير؟ وما علاقة المقصد العام للسورة بجهات التناسب تلك؟ أما عن النتائج فأهمها: يُحذف جواب القسم إذا اقتضاه المقام. أتى أسلوب القسم متماسكًا، تمتد خلال سَداه ولُحمته خيوط التناسب، حتى يبدو محكم النسج، مما يجعل صورته المعنوية . والتي اكتساها أسلوب القسم . تقع في سمع المخاطب ورُوعه وقلبه كالكل المجتمع الذي تتداخل لبناته وتتماسك، وفي ذلك التأثير من الإمتاع والإقناع ما لا يخفى. في القسم جمع بين الأسلوبين الإنشائي بالقسم والخبري بجوابه، وفي ذلك ما لا يخفي من التأثير في النفس الإنسانية في المقامات والسياقات التي اقتضت ذلك. يُقسم القرآن بالمحسوسات من الأمكنة والأزمنة والثمار والإنسان والحيوان على المعنويات والغيبيات، وفي ذلك من التوكيد والتأثير والإقناع بوقوع الغيبيات ما لا يخفى. أتى المقسم به المتعدد متناسبًا بالتوافق أو التضاد حسب مقتضيات الأحوال. وقد اتبعت الدراسة المنهج: الوصفي التحليلي. هذا، والكلمات المفتاحية للبحث هي: التناسب . أسلوب . القسم . المقسم به . الجواب .

Summary

The study aims to answer the research questions, the most important of which are: What is the secret of the multiplicity of the denominator at one time, and the individual at other times? Did the effect of the Qur'anic statement for each one divided on it divided by another? What are the points of proportionality between the divisor and the divisor in the opening of the last party fence? What is the relationship of the general purpose of the surah to those bodies of proportionality? As for the results, the most important of them are: The oath of the department is deleted if required by the station. The style of the department was coherent, extending through its streak and its flesh the threads of proportionality, until it appears tightly woven, which makes its moral image – and that it covered the style of the section – lies in the hearing of the addressee, his terror, and his heart like the whole society whose daughters overlap and hold together, and in that effect of enjoyment and persuasion is not hidden. In the

section, he combined the structural methods of the department and the expert with his answer, and in that he does not conceal from the influence on the human soul in the positions and contexts that required that. The Qur'an is divided with perceptions from places, times, fruits, people and animals, according to morale and occultation, and in that affirmation, influence and persuasion of the occurrence of the occult is what is not hidden. The multiple divisor is proportional to compatibility or contradiction, as appropriate. The study followed the method: descriptive analytical. This, and the search keywords are: proportionality – style – division – divided by – answer.

مقدمــة

الحمد لله، والصلاة والسلام على سيدنا رسول الله . صلى الله عليه وسلم . وبعد:

فالقَسَم من سنن العرب في كلامهم، يُقنعون به مخاطبيهم، ويؤكدون به معانيهم، ويعضِّدون به أخبارهم؛ لتترسخ في الأذهان، وتستقر في الوجدان.

والقرآن الكريم كتاب عزيز عزَّة منزله، فلا يُغلَب، نزل يتحدى العرب في جنس ما نبغوا فيه، أمَا وقد نبغوا في البيان فكانوا سدنته، فليتحداهم القرآن في ميدان نبوغهم، وساحة سبقهم، فكان إعجاز القرآن الكريم بما له من وجوه، لا يزال الدارسون يتذوقون لذائذها، ويدركون بلاغتها، ركضًا وراء بيانها المعجز، وأسرارها الكوامن، وراء ما اكتسته صور معانيه من معانٍ وظلال وإشارات.

ومن ألوان ذلك الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم التناسب ، ومن صوره أن يتحقق في أسلوب القسم في مطالع السور، فالمتأمل في أقسام القرآن الكريم يلحظ تناسبًا بين أجزاء المقسم به، كما يلحظ تناسبًا بين القسم وجوابه، وبين أسلوب القسم والمقصد العام للسورة، بل بين أسلوب القسم وما قبله وما بعده، حيث تمتد خيوط التناسب والانسجام والتشابك في بنية أسلوب القسم، فتخرق عادات البشر في أقسامهم، حتى إنك ترى أسلوب القسم كالعِقد المنظوم الذي تشاكلت خرزاته، وتآخت وحداته، وانسجمت مكوناته، في نظم بديع، كلما عاودت سبر أغواره أفصح لك عن نكات وأسرار.

ومن هنا كانت فكرة هذا البحث، فلا شك أن أسرار التناسب في أسلوب القسم القرآني، تحتاج إلى بحث يسبر أغوارها، ويمضي كاشفًا أسرارها؛ تجليةً لجانب من جوانب الإعجاز القرآني الخارق لعادات البشر في أقسامهم.

هذا، وقد دفعني لاختيار هذا الموضوع أمور، منها:

- جدَّة فكرة هذا البحث ، فليس هناك بحث بلاغي تمحض لدراسة هذه الفكرة ـ فيما أعلم ـ وإن كانت هناك دراسات تناولت أسلوب القسم القرآني، لكن من جوانب أخرى غير التي تتمحض لها دراستي.
- تنوع ألوان التناسب في نظم أسلوب القسم في فواتح السور.
- محاولة الإسهام في الكشف عن وجه من وجوه الإعجاز القرآني؛ وقوفًا على شيءٍ من الأسرار والمذاقات والنِّكات الكوامن وراء النظم القرآني لأسلوب القسم.

أما عن الدراسات السابقة: فلم أقف على دراسة سابقة تمحضت لمعالجة فكرة هذا البحث، وإن كانت هناك دراسات تناولت أسلوب القسم القرآني، لكن من جوانب أخرى غير التي تتمحض لها دراستي.

وتكمن مشكلة البحث في: أن الأقسام في فواتح سور الحزب الأخير، أتت وقد تناسبت أجزاء المقسم به فيها بالتضاد تارة، وبالتوافق تارة، كما أتى المقسم به شيئًا واحدًا تارة أخرى. كما أن المقسم به تعدد في أسلوب القسم الواحد تارة، وأُفرد المقسم به تارة أخرى، كما في فاتحة سورة العصر دون غيرها، كما آثر البيان القرآني لكل مقسَمٍ عليه مقسمًا به دون غيره، وذلك في سياقات ومقامات مختلفة.

فكانت الحاجة ماسةً لدراسة بلاغية تحليلية، تحاول إدراك الإعجاز البلاغي للتناسب في بنية أسلوب القسم؛ ركضًا وراء الأسرار والمذاقات والدلالات البلاغية والخَصوصيات التعبيرية، التي تكمن وراء ذلك التناسب، وما له من ظلال دلالية، وإيحاءات بيانية، تسبح فيها الأخلاد، فلا تصل إلى مرفأ النهاية!!

وتهدف الدراسة الإجابة عن أسئلة البحث، والتي أهمها:

ما جهات التناسب بين المقسم به والمقسم عليه في فواتح سور الحزب الأخير؟ وما علاقة المقصد العام للسورة بجهة التناسب تلك؟ وما سر تعدد المقسم به تارة، وإفراده تارة أخرى؟ ولم آثر البيان القرآني لكل مقسَمٍ عليه مقسمًا به دون غيره؟

هذا، وقد جاءت دراستي هذه تحت عنوان: [بلاغة تناسب أسلوب القسم في فواتح السور القرآنية ـ الحزب الأخير نَموذجًا].

وقد اقتصرت حدود الدراسة على الأقسام في فواتح سور الحزب الأخير؛ حتى يتهيأ للدراسة الوقوف على نتائج دقيقة، تُسهم في الكشف عن الأسرار الكامنة وراء اعتبار ما عليه النظم القرآني للقسم في فواتح تلك السور.

واقتضت طبيعة تلك الدراسة أن تخرج في مقدمة، وتمهيد، وثلاثة مباحث، وخاتمة، وفهارس، وبيان ذلك كما يلي:

مقدمة، وتضم: أهمية الموضوع، وأسباب اختياره، والدراسات السابقة، ومشكلة البحث،

وأهدافه، وأسئلته، وخطته، والمنهج المتبع في دراسته، ثم التمهيد وعنوانه: تحرير المصطلحات، ومهاد نظري.

ثم يأتي البحث في ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: بلاغة تناسب أسلوب القسم في فواتح السور ذوات الأقسام المبنية على التضاد.

المبحث الثاني: بلاغة تناسب أسلوب القسم في فواتح السور ذوات الأقسام المبنية على التوافق.

المبحث الثالث: بلاغة تناسب أسلوب القسم في سورة العصر ذات المقسم به المنفرد.

أما عن المنهج، فقد اتبعت هذه الدراسة المنهج الوصفي التحليلي.

هذا، وأسأل الله . تعالى . أن يجعل هذا العمل خالصًا لوجهه الكريم، وأن يجعله في الكتاب والميزان، يوم تنصب الموازين، وأن يرزقني التوفيق والسداد والرشاد...اللهم آمين.

التمهـــــــيد:

تحرير المصطلحات، ومهاد نظري

أولًا: تحرير المصطلحات.

- **حقيقة التناسب لغة:**

يقول الرازي: "فُلانٌ يُنَاسِبُ فُلَانًا فهو نَسِيبُهُ، أَيْ: قَرِيبُهُ، وَبَيْنَهُمَا مُنَاسَبَةٌ، أَيْ: مُشَاكَلَةٌ"[(١)].

أما اصطلاحًا: فيقول الزركشي: "المناسبة أمر معقول إذا عرض على العقول تلقته بالقبول"[(٢)]، ويقول البقاعي: "علم مناسبات القرآن: علم تعرف منه علل ترتيب أجزائه، وهو سر البلاغة؛ لأدائه إلى تحقيق مطابقة المقال، لما اقتضاه الحال، وتتوقف الإجادة فيه على معرفة مقصود السورة، المطلوب ذلك فيها، ونسبته من علم التفسير، نسبة علم المعاني والبيان من النحو، فهو غاية العلوم"[(٣)].

والتناسب يكون في الألفاظ بالجناس والمشاكلة، ويكون في المعاني بمراعاة النظير والطباق والتشبيه والاستعارة، ويتحقق التناسب كذلك بالنغم الصوتي[(٤)].

---

(١) مختار الصحاح، الرازي، تح/ يوسف الشيخ محمد، صـ٣٠٩، المكتبة العصرية – الدار النموذجية . بيروت، ط الخامسة، ١٤٢٠هـ .

(٢) البرهان في علوم القرآن، تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم، جـ١، صـ٣٥، دار إحياء الكتب العربية، ط الأولى، ١٣٧٦هـ.

(٣) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، البقاعي، جـ١، صـ١٤٢، مكتبة المعارف ـ الرياض، ط الأولى، ١٤٠٨ هـ.

(٤) ينظر: النظم البلاغي بين النظرية والتطبيق، د/ إسماعيل الجناجي، صـ٤٠، ط دار الطباعة المحمدية . القاهرة، ط الأولى، ١٤٠٣هـ.

ويطلق التناسب على مراعاة النظير .

ويقال لها الائتلاف والتوفيق أيضًا ، وهي: أن يجمع في الكلام بين أمر وما يناسبه لا بالتضاد[٥]،ولكن الحقيقة أن التناسب أعم من مراعاة النظير؛ إذ تتنوع صوره بين النغم والألفاظ والمعاني، وقد وضع ابن الأثير عنوانًا سماه: [المواخاة بين المعاني، والمؤاخاة بين المباني][٦].

ومن المناسبة أيضًا: التناسب في المقدار، وهذا في الشعر محفوظ بالوزن، أما الكلام المنثور، فالأحسن منه تساوى الفصول في مقاديرها[٧].

هكذا تتنوع صور التناسب، وكل صورة من صوره بلاغة إذا اقتضاها المقام.

- **حقيقة الأسلوب:**

يقول الفيومي:"الأسلوب بضم الهمزة: الطريق والفن، وهو على أسلوبٍ من أساليب القوم، أي: على طريقٍ من طرقهم"[٨] أما اصطلاحًا فيقول ابن خلدون: "هو المنوال الذي يُنسج فيه التراكيب"[٩] ويتخذه الأديب سبيلًا للتعبير عن معنىً من المعاني، وتتعدد أساليب التعابير، وأبلغها ما وافق الحال.

- **حقيقة القسم:**

يقول ابن منظور: "القَسَمُ، بالتحريك: اليمين، وكذلك المُقْسَم، وهو المصدر... والجمع: أقسام، وقد أقسم بالله، واستقسمه به، وقاسمه: حلف له، وتقاسم القوم: تحالفوا"[١٠]، وللقسم والمُقْسَم به أدواتٌ، وأكثرها الواو، ثمَّ الباء، ويدخلان على كلِّ محلُوف به، ثمَّ التاء، ولا تدخل إلا في واحد، وذلك قولك: والله لأفعلن، وبالله لأفعلنَّ[١١]، ولكل أداة من أدوات القسم مقامها الذي يقتضيها، والمعنى الذي يكتسيها.

---

(٥) ينظر: بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، للشيخ/ عبد المتعال الصعيدي، جـ٤، صـ٥٨٣، مكتبة الآداب . القاهرة، ط السابعة عشرة، ٢٠٠٥م .

(٦) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، تح/ أحمد الحوفي، بدوي طبانة، جـ٣، صـ١٥٣، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع . القاهرة، بدون تاريخ.

(٧) ينظر: سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، صـ١٩٢، ط دار الكتب العلمية . بيروت، ط الأولى، ١٩٨٢م .

(٨) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي، جـ١، صـ٢٨٤، ط دار الكتب العلمية - بيروت، بدون تاريخ.

(٩) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ابن خلدون، تح/ خليل شحادة، جـ١، صـ٧٨٦ ، دار الفكر . بيروت، ط الثانية، ١٤٠٨هـ .

(١٠) لسان العرب، ابن منظور، جـ١٢، صـ٤٨١، دار صادر- بيروت، ط الثالثة، ١٤١٤هـ .

(١١) ينظر: الكتاب، سيبويه، تح/ عبد السلام هارون، جـ٣، صـ٤٩٦، مكتبة الخانجي - القاهرة، ط الثالثة، ١٤٠٨ هـ .

ثانيًا: مهاد نظري:

مزية التناسب جعل أجزاء الكلام يأخذ بعضها بعناق بعضٍ، فيقوى بذلك ارتباط البنية التركيبية لنظم الكلام، ويصير البناء محكمًا، منسجمًا، متماسكًا، متلائم الأجزاء.

فـ"القرآن الكريم تقرؤه من أوله إلى آخره، فإذا هو محكم السرد، دقيق السبك، متين الأسلوب، قوي الاتصال، آخذ بعضه برقاب بعض، في سوره وآياته وجمله، يجري دم الإعجاز فيه كله من ألفه إلى يائه، كأنه سبيكة واحدة، ولا يكاد يوجد بين أجزائه تفكك ولا تخاذل، كأنه حلقة مفرغة، أو كأنه سمط وحيد، وعقد فريد، يأخذ بالأبصار، نظمت حروفه وكلماته، ونسقت جمله وآياته، وجاء آخره مساوقًا لأوله، وبدا أوله مواتيًا لآخره"[١٢].

ومن صور الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم، التناسب، وقد قلَّ اعتناء المفسرين به لدقته، وممن اهتم به الإمام فخر الدين الرازيّ، يقول في تفسيره: أكثر لطائف القرآن مودعة في الترتيبات والروابط، وقال بعض الأئمة: من محاسن الكلام أن يرتبط بعضه ببعض؛ لئلا يكون منقطعًا، وقالوا: ارتباط آي القرآن بعضها ببعض حتى تكون كالكلمة الواحدة، متسقة المعاني، منتظمة المباني، علم عظيم[١٣].

إن التناسب في القرآن الكريم يحقق تماسكه وترابطه، حتى إنك لترى القرآن الكريم نظمًا فريدًا معجزًا خارقًا لعادات البشر في تحقيق ذلك التناسب بصوره المتنوعة، يقول د/ دراز: "عظمة الثروة المعنوية في أسلوب القرآن على وجازة لفظه، يضاف إليه أمر آخر، هو زينة تلك الثروة وجمالها، ذلك هو تناسق أوضاعها، وائتلاف عناصرها، وأخذ بعضها بحُجُز بعض، حتى إنها لتنتظم منها وحدة محكمة لا انفصام لها"[١٤].

ثالثًا: المقسم به في القرآن الكريم:

أقسم الحق سبحانه بذاته العليَّة، وبما شاء من مخلوقاته، فمن إقسامه بذاته العليَّة، قوله تعالى: {فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَا أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ}[١٥]، وقوله: {فَلا أُقْسِمُ بِرَبِّ الْمَشَارِقِ وَالْمَغَارِبِ إِنَّا لَقَادِرُونَ}[١٦]، كما أقسم سبحانه ببعض مخلوقاته كالشمس والقمر والنهار والليل والسماء والأرض والعصر...إلى غير ذلك مما أقسم به سبحانه، وقد تُستفتح السورة بأسلوب القسم، نحو قوله سبحانه: {وَالْفَجْرِ}، {لا أقسم بهذا البلد}، {وَالشَّمْسِ}،

---

(١٢) مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزُّرْقاني، جـ١، صـ٦٠، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط الثالثة، بدون تاريخ.

(١٣) ينظر: البرهان في علوم القرآن، جـ١، صـ٣٥،٣٦. وينظر: مفاتيح الغيب، الرازي، جـ١٠، صـ١١٠، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ط الثالثة،١٤٢٠ هـ ، والتفسير والمفسرون، د/ محمد الذهبي، جـ١، صـ ١٩٧، مكتبة وهبة ـ القاهرة، بدون تاريخ.

(١٤) النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، د/ محمد عبد الله دراز، صـ١٧٦، دار القلم للنشر والتوزيع، ١٤٢٦هـ .

(١٥) سورة الذاريات، الآية رقم: ٢٣ .

(١٦) سورة المعارج، الآية رقم: ٤٠ .

{وَاللَّيْلِ}، {وَالضُّحَى}، {وَالتِّينِ}، {وَالْعَادِيَاتِ}، {وَالْعَصْرِ} وقد يأتي القسم في غير مطلع السورة، ولكل مقاماته وسياقاته.

رابعًا: العلاقة بين مكية السور واستفتاحها بالأقسام:

السور التي افتُتِحت بالأقسام في الحزب الأخير . محل الدراسة . كلها مكية، وفي استفتاحها بالقسم ما يلائم خصوصيات القرآن المكي، وما فيه من قضايا العقيدة الإيمانية، وترسيخ أصول الإيمان في القلوب، والتي يلائمها القسم؛ لما له من خصوصيات في ترسيخ المعاني، وتوكيد الأخبار، فضلًا عن مناسبة القسم لحال المخاطَبين في تلك الفترة المكية، وما نال بعضهم من إيذاء المشركين واعتداء عليهم، ناسبه التثبيت بالأقسام.

خامسًا: سر القسم بمُقْسَم به بعينه على مُقْسَم عليه بعينه:

المتدبرون للقرآن الكريم، الذين يُرجعون فيه أبصارهم وبصائرهم كرة بعد كرة؛ ركضًا وراء أسرار بلاغته المعجزة، تباينت نظرتهم لاعتبار القرآن الكريم للقسم بمقسَم به بعينه على مقسَم عليه بعينه، فمنهم من فسَّر ذلك بأن القسم القرآني بمقسَم به دليل على عظمة المقسَم به، قال ابن القيم: وإقسامه – تعالى – ببعض مخلوقاته، دليل على أنها من عظيم آياته[١٧].

وسادت هذه الفكرة، فألجأتهم إلى اعتسافٍ في بيان وجه التعظيم في كل ما أقسم به القرآن الكريم، ففي القسم بالليل . مثلاً . قد يبدو وجه الإعظام، إذا لحظوا فيه الحكمة الإلهية مِن خلق الليل وجعله لباسًا وسكنًا، ولكنهم لحظوا فيه كذلك – في آية الضحى – معنى الاستيحاش، وأنه وقت الغمِّ، وربما تأوّلوه بسكون الموت، وظلمة القبور والغربة، مما لا يظهر فيه معنى الإعظام إلا عن تكلف وقسر، واستكراه[١٨].

ولذلك كانت هذه الوجهة في بيان سر مجيء مقسم به دون غيره، لا تسبر غور المعاني، ولا تلحظ ما وراء أكمة المباني؛ إذ إنها لا تثبت أمام النظرة الفاحصة المتعمقة؛ فالحقيقة أن البيان القرآني اعتبر في بناء الأقسام مقسَمًا به يلائم مقامات وسياقات القسم وجوابه، بل ومقصد السورة، وما قبلها وما بعدها، ووراء ذلك من الدلالات والإشارات والروابط ما يُسهم في إبراز الإعجاز البلاغي للقرآن الكريم.

---

(١٧) ينظر: التبيان في أيمان القرآن، ابن القيم، تح/ عبد الله بن سالم البطاطي، صـ١٧، دار عالم الفوائد . مكة المكرمة، ط الأولى، ١٤٢٩هـ .

(١٨) ينظر: التفسير البياني للقرآن الكريم، د/ عائشة عبدالرحمن، جـ١، صـ٢٤، دار المعارف – القاهرة ط السابعة، بدون تاريخ.

سادسًا: فواتح سور الحزب الأخير من حيث ذكر جواب القسم وحذفه:

البيان القرآني يذكر جواب القسم تارة، وهو الغالب، وتارة يحذفه . وهو مراد . لكونه قد ظهر وعُرِف، إما بدلالة الحال، وإما بدلالة السياق، وأكثر ما يكون هذا إذا كان في نفس المقسم به ما يدل على المقسم عليه، وهي طريقة القرآن، فإن المقصود يحصل بذكر المقسم به، فيكون حذف المقسم عليه أبلغ وأوجز[١٩].

سابعًا: جهتا التناسب في المقسم به في فواتح الحزب الأخير:

بالنظر في المقسم به في فواتح سور الحزب الأخير من القرآن الكريم . محل الدراسة . نرى أن المقسم به في فواتح تلك السور له جهتا تناسب، الأولى: جهة التضاد، وذلك في سور: الفجر، والشمس، والليل، والضحى. والثانية: جهة التوافق، وذلك في سور: البلد، والتين، والعاديات. وسورة واحدة تلك التي أقسم الحق سبحانه في فاتحتها بمقسم به واحد، وهي سورة العصر، ولكلٍ من ذلك أسراره ومذاقاته البلاغية، التي سآتي عليها في مواضعها من البحث.

المبحث الأول:

بلاغــة تناسب أسلوب القسم في فواتح السور ذوات الأقسام المبنية على التضاد

وفيه أربعة مطالب:

المطلب الأول:

بلاغة تناسب أسلوب القسم في فاتحة سورة الفجر

- **يقول تعالى:** {وَالْفَجْرِ . وَلَيَالٍ عَشْرٍ . وَالشَّفْعِ وَالْوَتْرِ . وَاللَّيْلِ إِذَا يَسْرِ . هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ}.[٢٠]

- **المقصد العام للسورة:**

ابتداءً نقف على المقصد العام للسورة، يقول البقاعي: "ومقصودها: الاستدلال على آخر الغاشية: الإياب، والحساب بالثواب والعقاب، وأدل ما فيها على هذا المقصود الفجر، بانفجار الصبح عن النهار الماضي بالأمس من غير فرق في شيء من الذات، وانبعاث الناس من الموت الأصغر (النوم) بالانتشار في ضياء النهار؛ للمجازاة في الحساب"[٢١] يقول تعالى: {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ . لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ . إِلا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ . فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ . إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ}[٢٢] فمطلع سورة الفجر يحمل دليلًا ماديًا مشاهَدًا على البعث للحساب، يراه الناس

---

[١٩] ينظر: التبيان في أيمان القرآن، صـ١٤.

[٢٠] سورة الفجر، الآيات: من ١: ١٠ .

[٢١] مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، جـ٣، صـ١٩٠.

[٢٢] سورة الغاشية، الآيات: من ٢١ : ٢٦ .

بأعينهم، ويتكرر أمام نواظرهم كل يوم، إنه الفجر الذي ينبجس ضوؤه من رحم الظلام الدامس.

- **التناسب بين مقاطع المقسم به:**

أقسم سبحانه بـ[الفجر . ليالٍ عشر . الشفع والوتر . الليل إذا يسر] والمقصود بـ[والفجر]: الكامل في هذا الوصف؛ لما له من العظمة حتى كأنه لا فجر غيره، وهو فجر يوم النَّحر، الذي هو أول الأيام الآخذة في الإياب إلى بيت الله الحرام، بدخول حرمه، والتحلل من محارمه، وأكل ضيافته، ولما ذكر هذا اليوم بما العبارة به عنه أدل على البعث؛ لأنه ينفجر عن صبح قد أضاء، وليل قد انقضى، قال معبرًا بالمقابل: [وليالٍ عشر]: هي أعظم ليالي العام [والشفع] أي: لمن تعجل في يومين [والوتر] أي: لمن أتم، ولما كان تعاقب الليل والنهار أدل على القدرة وأظهر في النعمة، قال رادًّا لآخر القسم على أوله، [والليل أي: من ليلة النفر [إذا يسر] أي: ينقضي كما ينقضي ليل الدنيا، وظلام ظلمها فيخلفه الفجر، ويَسرى فيه الذين آبوا إلى الله راجعين إلى ديارهم بعد حطِّ أوزارهم، وقد رَجَع آخر القسم على أوله [هل في ذلك] أي: المذكور مع ما له من عليّ الأمر [قسم] أي: كاف مقنع [لذي حجر] أي: صاحب عقل فيَحجره ويمنعه عن الهوى، فيُعليه إلى الهدى، حتى يعلم أن الذي فعل ما تضمنه هذا القسم لا يتركه سُدىً، وأنه قادر[٢٣].

ومن المفسرين من يرى: أن تقطيع الوحدة الزمنية مع هذه الأوقات التي أقسم الله . سبحانه وتعالى . بها، يجعل الجمع بينها خُلْوًا من المناسبة التي تجمع بينها، وتؤلف منها كيانًا متسقًا متلاحمًا، الأمر الذي لا يفوت النظم القرآني في أيّ موضع يجتمع فيه شيء إلى شيء، سواء أكان هذا الجمع على سبيل التوافق أو التضاد، ولعل خير موقف نأخذه عند النظر في هذه الأقسام، للخروج من التضارب في دلالاتها، هو أن نقف بها عند مدلولها اللفظي، مطلقًا من كل قيد، فالفجر: هو الفجر أي فجر يكون، والليالي العشر: هي ليال عشر من أي ليالي الزمن كله على امتداده، والشفع والوتر: هو العدد الزوجي أو الفردي من الليالي، والليل: هو أي ليل يقابل النهار، من أي يوم من أيام الزمن، وفى هذا نجد أن المقسم به هنا هو الزمن، في وحدات زمنية منه، هي الفجر، والليل، وعشر ليال من هذا الليل، أما الشفع والوتر، وإن لم يكن من المتعيّن أن المعدود بهما قِطَع من الزمن، فإن السياق الذي جاءا فيه، يقضي بأن يكون المعدود- زوجًا أو فردًا- قطعًا من الزمن، وأقرب هذه القطع أن تكون من الليالي، شفعًا أو وترًا.[٢٤]

---

(٢٣) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، صـ٢١وما بعده، دار الكتاب الإسلامي . القاهرة، بدون تاريخ.

(٢٤) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب، جـ١٦، صـ١٥٤٧ وما بعدها، دار الفكر العربي - القاهرة، بدون تاريخ.

وتتناول د/عائشة عبدالرحمن الحديث عن معنى المقسم به في مطلع سورة الفجر من خلال استقراء تام لآيات القسم بالواو في القرآن الكريم، وعليه فلا ترى تفسير المقسم به وقوفًا على أصل الاستعمال اللغوي، تقول: "ولا وجه عندنا، بعد أن تدبرنا آيات القسم بالواو في القرآن الكريم، للوقوف به عند أصل استعماله اللغوي في التعظيم، والأولى أن يخرج عنه إلى الاستعمال البلاغي الذي لا يتعلق بما جاء على أصل الوضع اللغوي، بل يُعدل عنه لملحظ بياني، هو في آيات الفجر: اللفت إلى انبثاق نور الفجر في ظلمة الليل الساري، توطئة إيضاحية بالحسى المدرك، إلى معنويات من الهدى والضلال"[٢٥].

وعلى الرغم من اختلاف التفاسير حول دلالات مقاطع المقسم به، إلا أن التناسب يؤلف بين عُراها، فبين أجزاء المقسم به تناسب بالتضاد، والتناسب بالتضاد أتى مناسبًا لختام سورة الغاشية؛ حيث تناولت الآيات إياب الناس لربهم سبحانه للحساب، وفي رحلتهم إلى دار الحيوان، يبدأ تمايزهم؛ فالقبر إما روضة من رياض الجنان، وإما حفرة من حفر النيران، وفي الحشر منهم من هو في ظل الرحمن، ومن يلجمه العرق، وعندما تنصب الموازين، منهم من ثقلت موازينه، ومنهم من خفت موازينه، وفي الحساب تتباين أحوالهم . كذلك . فمنهم شقي وسعيد، فمنهم فريق في الجنة، وفريق في السعير . والعياذ بالله تعالى . فالتضاد يسيطر على مصائرهم، ويغطى المشهد، فناسب ذلك مجيء مطلع سورة الفجر مبنيًا على التضاد، فسبحان من هذا بيانه!!

ومن صور التناسب في المقسم به السجع، الذي أحدث الانسجام الصوتي الذي يسري بين مقاطع المقسم به، فيربط بينها بوشيجة النغم الصوتي الواحد، الذي صيَّر مقاطع المقسم به كالكل المجتمع، الذي تتعانق أجزاؤه مكوِّنة الصورة الصوتية للمقسم به.

وقد أتت الواو تربط بين مقاطع المقسم به، وتشد وثاق أجزائه، مما جعل النظم متماسكًا، محكم السبك، يقول الإمام عبد القاهر عن الواو: "وجملةُ الأمر أنها لا تجيئ حتى يكونَ المَعْنى في هذه الجملة لَفْقًا للمعنى في الأخرى ومُضامًّا له"[٢٦].

وفي بنية المقسم به مؤاخاة بين المعاني، فالفجر والليالي العشر والشفع والوتر والليل إذا يسر كلها ذوات معانٍ متآخية، فالتناسب بين معانيها بيّن، وذلك عن طريق مراعاة النظير، إذ تدور معانيها حول الزمن، والمواخاة بين المعاني: أن يذكر المعنى مع أخيه، لا مع الأجنبي[٢٧].

---

(٢٥) التفسير البياني للقرآن الكريم، جـ٢، صـ١٣٢.

(٢٦) دلائل الإعجاز، تح/ محمود شاكر، صـ٢٢٥، مطبعة المدني . القاهرة – دار المدني . جدة، ط الثالثة، ١٤١٣هـ.

(٢٧) ينظر: المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، جـ٣ ، صـ١٥٤ .

- **التناسب بين المقسم به والمقسم عليه:**

يقول الرازي: "واعلم أن في جواب القسم وجهين، الأول: أن جواب القسم هو قوله: إن ربك لبالمرصاد، وما بين الموضعين معترض بينهما. الثاني: قال صاحب [الكشاف] : المُقْسَمُ عليه محذوف وهو: [لَنُعَذِّبَنَّ الْكَافِرِينَ]، يدل عليه قوله تعالى: [ألم تر] إلى قوله: [فصب عليهم ربك سوط عذاب] وهذا أولى من الوجه الأول؛ لأنه لما لم يَتَعيَّن المُقْسَمُ عليه ذهب الوهم إلى كل مذهب، فكان أدخل في التخويف، فلما جاء بعده بيان عذاب الكافرين، دلَّ على أن المُقْسَمَ عليه أولًا هو ذلك"[٢٨] وإلى ذلك ذهب البيضاوي، يقول: "والمقسم عليه محذوف وهو: [لَيُعَذَّبُنَّ]"[٢٩].

والحذف . عمومًا . أبلغ من الذكر، إذا طلبه الحال، يقول عنه الإمام عبد القاهر:"هو باب دقيق المسلك، لطيف المأخذ، عجيب الأمر، شبيه بالسحر، فإنك ترى به تركَ الذكر، أفصح من الذكر، والصمتَ عن الإفادة، أزيدَ للإفادة، وتجدُك أنطقَ ما تكون إذا لم تنطق، وأتمَّ ما تكون بيانًا إذا لم تُبِن"[٣٠]فبالذكر تنال النفس رغبتها، وتتحقق لها مُنْيَتُها، فتهدأ عن البحث، أما الحذف فإنه باب للتأمل، وميدان للركض خلف إدراك المحذوف، وعند ذلك تتحدَّر المعاني، وتنسال مدرارة لتبل أشواق النفس المتعطِّشة للمحذوف.

يقول ابن قيم الجوزية: "تارة يحذف الجواب وهو مراد؛ إما لكونه قد ظهر وعُرِف، إما بدلالة الحال، كمن قيل له: كل، فقال: لا والله الذي لا إله إلا هو، أو بدلالة السياق، وأكثر ما يكون هذا إذا كان في نفس المقسم به ما يدل على المقسم عليه، وهي طريقة القرآن، فإن المقصود يحصل بذكر المقسم به، فيكون حذف المقسم عليه أبلغ وأوجز"[٣١] فبحذف الجواب، مضت العقول تسرح في كل واد؛ بحثًا عن الجواب، وفي ذلك من الخِلابة ما لا يخفى.

هذا، وقد دلت مقاطع المقسم به على الجواب، وعليه فالبلاغة في اعتبار خصوصية طي الجواب، وهذا ما أتى به النظم القرآني، تقول د/ عائشة عبدالرحمن: "ونطمئن إلى أنَّ آيات القسم في سورة الفجر، قد تم بها المقصود من اللفت إلى المقسم به، بما يُغنى عن تأوُّل جواب محذوف أو غير محذوف، وقد تمت آيات القسم بهذا السؤال الصادع: {هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ}، فلم يعد السياق في حاجة إلى تكملة أو جواب"[٣٢].

وأرى: أن ختام سورة الغاشية يرشد إلى الجواب المطوي، قال تعالى: { فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ . لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ . إِلا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ . فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ . إِنَّ إِلَيْنَا

---

(٢٨) مفاتيح الغيب، جـ٣١، صـ١٥٢.

(٢٩) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، تح/ محمد عبد الرحمن المرعشلي جـ٥، صـ٣٠٩، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ط الأولى، ١٤١٨هـ.

(٣٠) دلائل الإعجاز، صـ١٤٦.

(٣١) التبيان في أيمان القرآن، صـ١٤.

(٣٢) التفسير البياني للقرآن الكريم، جـ٢، صـ١٣٦.

إِيَابَهُمْ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ}[٣٣] فمَن يأتي كلَّ يوم بفجر جديد يُبدد ظلام الليل البهيم، قادرٌ على إنجاز ما توعَّد به من عذاب، وفي ذلك من الترغيب في الطاعة والترهيب من المعصية ما لا يخفى.

هذا، ولا يخفى ما بين صدر القسم {والفجر} والمقسَم به المقدَّر: [لَنُعَذِّبَنَّ الْكَافِرِينَ]، من مناسبة وارتباط؛ فمباغتة الفجر، يلائمها المقسم به المقدَّر: [لَنُعَذِّبَنَّ الْكَافِرِينَ]، وما يترتب عليه من مفاجأة؛ إذ البعث وما فيه من عذاب للعاصين والكافرين يكون في وقت لا يعلمه إلا الله، كما أن البعث للحساب يصاحبه من الأمور ما يفاجئ الخلائق من زلزلة الأرض، وبعثرت القبور، وتكوير الشمس، وخسف القمر، وجمع الشمس والقمر...

هذا، والقسم تعريض بتحقيق حصول المقسم عليه بالنسبة للمنكرين، كما أن المقصد من تطويل القسم بأشياء، التشويقُ إلى المقسم عليه[٣٤].

وهكذا نرى أسلوب القسم متماسكًا تمتد في سَداه ولُحمته خيوط التناسب، حتى يبدو محكم النسج، مما يجعل صورته معناه التي اكتساها أسلوب القسم تقع في سمع المخاطب ورُوعه وقلبه، كالكل المجتمع الذي تتداخل لبناته وتتماسك، وفي ذلك التأثير إمتاعًا وإقناعًا ما لا يخفى، يقول الإمام عبدالقاهر: "واعلم أن مما هو أصل في أن يدِقَّ النظر، ويَغْمُض المسلك، في توخِّي المعاني التي عرفت: أنْ تتَّحِدَ أجزاء الكلام، ويدخل بعضها في بعض، ويشتد ارتباط ثانٍ منها بأول، وأن تحتاج في الجملة إلى أن تضعها في النفس وضعًا واحدًا، وأن يكون حالك فيها حالَ الباني، يضع بيمينه ههنا في حال ما يضع بيساره هناك، نعم، وفي حال ما يبصر مكان ثالث ورابع يضعهما بعد الأولين، وليس لما شأنه أن يجيء على هذا الوصف حد يحصره، وقانون يحيط به، فإنه يجيء على وجوه شتى، وأنحاءَ مختلفة"[٣٥].

- **التناسب بين أسلوب القسم وما قبله وما بعده:**

إن الذي قبل القسم في مطلع سورة الفجر هو نهاية سورة الغاشية، حيث يقول تعالى: {فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ . لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُصَيْطِرٍ . إِلا مَن تَوَلَّى وَكَفَرَ . فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ . إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ . ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ}[٣٦] والناظر يدرك تراحم المعاني واضحًا بين أسلوب القسم ونهاية السورة السابقة، فإذا كان الحق . سبحانه . قادرًا على شق الفجر من رحم الظلام بطلاقة قدرته، فهو قادر على إنجاز ما توعد به من العذاب الأكبر لمن تولى وكفر، وفي ذلك من الترغيب في الطاعة والترهيب من المعصية ما لا يخفى، فأسلوب القسم يحمل دليلًا ماديًا وضحًا على ما جاء في

---

(٣٣) سورة الغاشية، الآيات من ٢١إلى ٢٦ .

(٣٤) ينظر: تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، ابن عاشور، جـ٣٠، صـ٣١٢، الدار التونسية للنشر – تونس، ١٩٨٤هـ.

(٣٥) دلائل الإعجاز، صـ٩٣ .

(٣٦) سورة الغاشية، الآيات من ٢١إلى ٢٦ .

ختام سورة الغاشية، وبهذا نرى التناسب جليًا بين أسلوب القسم في مطلع سورة الفجر وختام السورة التي قبلها، فالانسجام والترابط بين المعاني واضح جلي، وهكذا تتراحم معاني الذكر الحكيم، وتترابط في نظم معجز خارق لطاقات البشر في كلامهم.

ويبدو التناسب جليًا . كذلك . بين أسلوب القسم وما بعده ـ كما بدا بين أسلوب القسم وما قبله ـ فإذا كان أسلوب القسم بالفجر، يحمل دليلًا ماديًا محسوسًا على طلاقة قدرة الله . تعالى . فإن ما بعد أسلوب القسم تذكيرٌ بطلاقة قدرة الله . تعالى . بما جرى في الواقع من عقاب الطَّاغين من الأمم السابقة، قال تعالى: {أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ . إِرَمَ ذَاتِ الْعِمَادِ . الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلادِ . وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ . وَفِرْعَوْنَ ذِي الأَوْتَادِ . الَّذِينَ طَغَوْا فِي الْبِلادِ . فَأَكْثَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ . فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ . إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ}[٣٧].

وهكذا نرى حركة المعاني في القرآن الكريم، تعكس الانسجام والتماسك ليس على مستوى السورة الواحدة فحسب، وإنما بين السور وسوابقها ولواحقها.

المطلب الثاني:

بلاغة تناسب أسلوب القسم في فاتحة سورة الشمس

يقول تعالى:{وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا . وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا . وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاهَا . وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا . وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا . وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا . وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا}[٣٨].

- **المقصد العام للسورة:**

يقول الرازي: "المقصود من هذه السورة، الترغيب في الطاعات، والتحذير من المعاصي، واعلم أنه . تعالى . ينبّه عباده دائمًا بأن يذكر في القسم أنواع مخلوقاته المتضمّنة للمنافع العظيمة؛ حتى يتأمل المكلَّف فيها ويَشكر عليها؛ لأن الذي يُقسم الله . تعالى . به يحصل له وقعٌ في القلب، فتكون الدواعي إلى تأمله أقوى"[٣٩].

وأرى: أن كلام الرازي حول مقصود السورة، أتى عامًا؛ يصلح أن يوضع مقصِدًا لتلك السورة ولغيرها، بينما أتى كلام البقاعي عن مقصد السورة أكثر دقة، يقول: "ومقصودها: إثبات التصرُّف في النفوس التي هي سُرُج الأبدان؛ تقودها إلى سعادة أو كَبَد ونَكَد وهوان، كما أن الشمس سراج الفَلَك، يتصرف سبحانه فيها بالاختيار إضلالًا وهداية، ونعيمًا وشقاوة، كتصرفه في الشمس بمثل ذلك، من صحة

(٣٧) سورة الفجر، الآيات من ٦إلى ١٤ .

(٣٨) سورة الشمس، الآيات من ١ :١٠ .

(٣٩) مفاتيح الغيب، جـ٣١، صـ١٧٣.

واعتلال، وانتظام واختلال، وكذا في جميع الأكوان، بما له من عظيم الشأن"[٤٠].

هذا، وفي بيان مقصد السورة ما يُسهم في تجلية جهات التناسب بين معنى المقسم به والمقسم عليه، وهذا ما سيتضح فيما يلي.

- **التناسب بين مقاطع المقسم به:**

قوله عزَّ وجلَّ: {وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا} قسم، جوابه: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا}[٤١]، وذهب بعضهم إلى أن "جواب القسم محذوف، تقديره: لتُبعثُنَّ"[٤٢]، ويرى الزمخشري: أن تقدير جواب القسم المحذوف: [ليُدَمدِمَنَّ الله عليهم]، يقول: "فإن قلت: فأين جواب القسم؟ قلت: هو محذوف تقديره: [ليُدمدمنَّ الله عليهم]، أي: على أهل مكة؛ لتكذيبهم رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما دمدم على ثمود؛ لأنهم كذبوا صالحًا. وأما {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها} فكلام تابع لقوله: {فَأَلْهَمَها فُجُورَها وَتَقْواها} على سبيل الاستطراد، وليس من جواب القسم في شيء"[٤٣].

هذا، وأرى: قول من قال: إن جواب القسم قوله تعالى: {قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا}؛ لما في ذلك من ملاءمة السياق والمقام.

أما عن دلالة المقسم به، فالضُّحَى: انبساطُ الشمس وامتداد النهار[٤٤]، فأقسم جلَّ ثناؤه بالشمس وامتداد نهارها، وبالقمر إذا تبع الشمس، وذلك في النصف الأوّل من الشهر، إذا غربت الشمس، تلاها القمر طالعًا، وبالنهار إذا غَشِي الشمس، وبالليل إذا يغشى الشمس، وبالسماء ومَنْ خَلَقها، وبالأرض ومَنْ بسطها من كل جانب، وبنفس وما سواها، قيل: {وَمَا سَوَّاهَا} نفسه؛ لأنه هو الذي سوّى النفس وخلقها، فعدّل خلقها، وإن حملنا النفس على الجسد، فتسويتها تعديل أعضائها على ما يشهد به علم التشريح، وقيل: وضعت [ما] موضع [مَنْ]، وقيل: إنما أوثرت على [مَنْ]؛ لإرادة معنى الوصفية، كأنه قيل: والسماء والقادر العظيم الذي بناها، ونفس والحكيم الباهر الحكمة الذي سواها، وقد يُحتمل أن يكون معنى

---

(٤٠) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، جـ٣، صـ١٩٦.

(٤١) ينظر: معاني القرآن وإعرابه، الزجاج، تح/ عبد الجليل عبده شلبي، جـ٥، صـ٣٣١، عالم الكتب ـ بيروت، ط الأولى، ١٤٠٨هـ. والتبيان في إعراب القرآن، العكبري، تح/ علي محمد البجاوي، جـ٢، صـ١٢٩٠، عيسى البابي الحلبي، بدون تاريخ.

(٤٢) الجدول في إعراب القرآن الكريم، محمود صافي، جـ٣٠، صـ٣٤٠، دار الرشيد ـ دمشق، مؤسسة الإيمان ـ بيروت، ط الرابعة، ١٤١٨هـ.

(٤٣) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، جـ٤، صـ٧٦٠، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ط الثالثة، ١٤٠٧ هـ.

(٤٤) ينظر: المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تح/ صفوان عدنان الداودي، صـ٥٠٢، دار القلم ـ بيروت، الدار الشامية ـ دمشق ـ ، ط الأولى، ١٤١٢ هـ.

ذلك . أيضًا . المصدر، فيكون تأويله: ونفس وتسويتها، فيكون القسم بالنفس وبتسويتها[٤٥].

والواو الأولى في قوله: {وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا}[٤٦] للقسم، وما بعدها عطف[٤٧]، وقد ربطت واوات العطف بين أجزاء القسم، فأفرغت الأقسام كلها في النفس المتلقية كالكل المجتمع، الذي تتماسك أجزاؤه كالسبيكة الواحدة التي تداخلت عناصرها معًا، فالجمل التوالي معطوفات على الجملة الأولى في صدر القسم، يقول البيضاوي: "ولما كانت واوات العطف نوائب للواو الأولى القسمية الجارَّة بنفسها النائبة مناب فعل القسم من حيث استلزمت طرحه معها، ربطن المجرورات والظرف بالمجرور والظرف المتقدمين"[٤٨] فخرجت صورة المقسم به متماسكة البناء، يأخذ بعضها بعناق بعض.

ومن تناسب المعاني بين مقاطع المقسم به، ذلك الجمع بين المخلوقات والخالق؛ لنستدل على الخالق بعظائم مخلوقاته، التي لا ينقطع تجددها؛ لأنها جزء من الناموس الكوني، وأعظم المحسوسات هو الشمس، فذَكرها سبحانه مع أوصافها الدالة على عظمتها، ثم ذكر ذاته المقدسة بعد ذلك، والغرض من هذا الترتيب، أن يتوافق العقل والحسِّ على عظمة جِرْم الشمس، ثم يحتج العقل السّاذَج بالشمس، بل بجميع السماويات والأرضيات والمركبات على إثبات مبدئ لها، فحينئذ يحظى العقل هاهنا بإدراك جلال الله وعظمته على ما يليق به، والحس لا ينازعه فيه، فكان ذلك كالطريق إلى جذب العقل من حضيض عالم المحسوسات إلى يفاع عالم الربوبية، وبيداء كبرياء الصمدية [٤٩].

وقد زاد النيسابوري الفكرة توضيحًا، فذكر أنَّ الله ـ عزَّ وجلَّ ـ أراد أن نتدرج من المحسوسات إلى المعقولات، ومن المصنوعات إلى الصانع، ولا يخفى أن المحسوسات أظهرها الشمس، فذكرها سبحانه مع أوصافها الأربعة الدالة على عظمتها"[٥٠].

وفي اقتران النفس الإنسانية بمسوِّيها سبحانه في قوله:{ونفس وما سواها} بعد القسم بالمحسوسات من الشمس وضحاها، والقمر إذا

---

(٤٥) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، تح/ أحمد محمد شاكر، جـ٢٤، صـ٤٥١وما بعدها، مؤسسة الرسالة، ط الأولى، ١٤٢٠ هـ . والوسيط في تفسير القرآن المجيد، الواحدي، تح: الشيخ /عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ/ علي محمد معوض، الدكتور/ أحمد محمد صيرة، الدكتور/ أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور/ عبد الرحمن عويس، جـ٤، صـ٤٩٤، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط الأولى، ١٤١٥ هـ . والكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، جـ٤، صـ٧٥٩، ومفاتيح الغيب، جـ٣١، صـ١٧٦.

(٤٦) سورة الشمس، الآيات: من ١ :٧ .

(٤٧) ينظر: التبيان في إعراب القرآن، جـ٢، صـ١٢٩٠.

(٤٨) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، جـ٥، صـ٣١٥ .

(٤٩) ينظر: مفاتيح الغيب، جـ٣١، صـ١٧٥.

(٥٠) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين النيسابوري، تح: الشيخ/ زكريا عميرات، جـ٦، صـ ٥٠٧، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الأولى، ١٤١٦ هـ .

تلاها، والنهار إذا جلاها، والليل إذا يغشاها، والسماء وما بناها، والأرض وما طحاها، ترقٍ من المحسوس المشاهَد إلى الغيبي السمعي، ومن العظيم إلى الأعظم، ومن المرئي بالعِيان إلى المُدْرَك بالعقل والقلب، وفي ذلك من الإقناع واستصحاب المخاطَب من بيداء الشك إلى نور اليقين، ومن الإيمان الناقص إلى الإيمان الكامل، ومن الإيمان الكامل إلى زيادة الإيمان، وفي اعتبار البيان القرآني لتلك الخَصوصية في بنية المقسم به ما يوافق حال أمة البلاغ، ويؤدي المعنى المراد، ولو أتى القسم من غير اعتبارٍ لتلك الخَصوصية، لما أدى تلك الدلالة.

ومن جهات تناسب مقاطع المقسم به في مطلع سورة الشمس . كذلك . أنه سبحانه أقسم بشيء من العالم العُلوي والعالم السفلي، وبما هو آلة التفكُّر في ذلك، وهو النفس[٥١] كما أقسم بخالق كل ذلك سبحانه في قوله: {ونفس وما سواها} اتباعًا لمن قالوا: إنَّ [ما] بمعنى: [مَن] التي يُراد بها الحق سبحانه وتعالى.

وقد ذهب الطاهر بن عاشور في إدراك التناسب بين مقاطع المقسم به مذهبًا آخر، يقول: "وابتُدِئ بالشمس؛ لمناسبة المقام، إيماءً للتنويه بالإسلام؛ لأن هديه كنور الشمس، لا يترك للضلال مسلكًا، وفيه إشارة إلى الوعد بانتشاره في العالم كانتشار نور الشمس في الأفق، وأُتْبِع بالقمر؛ لأنه ينير في الظلام، كما أنار الإسلام في ابتداء ظهوره ظلمة الشرك، ثم ذُكِر النهار والليل معه؛ لأنهما مثلٌ لوضوح الإسلام بعد ضلالة الشرك، ومناسبة استحضار السماء عقب ذكر الشمس والقمر، واستحضار الأرض عقب ذكر النهار والليل واضحة، ثم ذُكِرت النفس الإنسانية؛ لأنها مظهر الهُدَى والضلال وهو المقصود"[٥٢] فالطاهر يرى: أن القسم بالشمس صورة رمزية، إذ الشمس رمز بها البيان القرآني لهداية الإسلام، وفي الرمز إيحاء أثرى الدلالة، وحمل ذهن المخاطب على التحليق ركضًا وراء الدلالة المرادة، ولا شك أن الطاهر متأثر في رؤيته باتجاهه البلاغي في التفسير.

أما عبدالكريم الخطيب، فيرى: أن جهة التناسب بين مقاطع المقسم به ترجع إلى التضاد، يقول: هذه أقسام عِدَّتها أحدَ عشرَ قَسَمًا، أقسم الله ـ سبحانه وتعالى ـ بها، مفتتِحًا السورة الكريمة بالشمس، وضحى الشمس، والقمر، والنهار، والليل، والسماء، وبناؤها، والأرض، وبسطها، ثم النفس، وما ركّب فيها، وهذه الأقسام مبنية على التضاد[٥٣].

ولا يخفى تناسب مقاطع المقسم به في القِصَر، فآيات المقسم به يجمعها البناء على هيئة منسجمة المقدار، كما يجمع عُرَى تلك المقاطع، ويشد وثاق بنيتها التركيبية، تلك الامتدادات الصوتية في فواصل الآيات، والتي

---

(٥١) ينظر: البحر المحيط في التفسير، أبو حيان، تح/ صدقي محمد جميل، جـ١٠، صـ٤٨٥، دار الفكر ـ بيروت، ١٤٢٠هـ .

(٥٢) تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، جـ٣٠، صـ٣٦٧.

(٥٣) ينظر: التفسير القرآني للقرآن، جـ١٦، صـ١٥٨٢.

تؤدي إلى انسجام النغم الصوتي، فالمقطع الصوتي:[ها] أتى في فواصل كل الآيات التي تُشَكِّل بنية المقسم به. كما أن الواو أتت مقترنة بمطالع تلك الآيات، مما أثمر تناسبًا وانسجامًا على مستوى النغم، فضلًا عن التناسب الحاصل على مستوى المعاني والألفاظ.

- **التناسب بين المقسم به والمقسم عليه:**

بين القسم وجوابه تناسب وانسجام؛ إنهما يتكاملان تكامل الدليل والمدلول، فقُدِّم الدليل، وهو الظواهر الكونية الكبرى، التي تتعاقب في نظام كوني ثابت دقيق لا يتخلف؛ وذلك تمهيدًا لمسارب النفس الإنسانية المتلقية، حتى إذا ما سيق المدلول استقر في النفس، وسكن في أطوائها؛ إذ صادف نفسًا ممهدة لقبول المدلول المقسم عليه، بعد ظهور براهين محسوسة، تُدركها وسائل الحسّ الإنساني بذاتها، يقول البيضاوي: "{قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاها}: أنماها بالعِلم والعمل جواب القسم، وحَذَف اللام للطول، كأنه لما أراد به الحث على تكميل النفس والمبالغة فيه، أقسم عليه بما يدلهم على العِلم بوجود الصانع...الذي هو أقصى درجات القوة النظرية، ويُذَكِّرهم عظائم آلائه؛ ليحملهم على الاستغراق في شكر نعمائه، الذي هو منتهى كمالات القوة العملية"[٥٤].

ولما كانت النفس تقتنع بالمحسوس المشاهَد وتطمئن إليه؛ لقوة برهانه كوسيلة للإقناع لا تقبل شكًا، أقسم سبحانه على الغيبي السمعي، وهو الجواب: {قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّاهَا. وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّاهَا} بالمحسوس من آيات الكون المُسَيَّر من شمس وقمر ونهار وليل وسماء وأرض، كما أقسم بالمُخَيَّر وهو النفس، فهو قسم بالمخير والمسير.

هذا، وبناء المقسم به على التضاد، فيه من الوعد والوعيد ما لا يخفى، فمَن قَدَر على خَلْق هذا التضاد، وما فيه من التغيير من النقيض إلى النقيض، في قوله تعالى:{وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا . وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا . وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاهَا . وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا . وَالسَّمَاء وَمَا بَنَاهَا . وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا . وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا} قادرٌ على تنعيم من أفلح بتزكية نفسه، وتعذيب من دسَّاها، يقول ابن عاشور: "القسم لتأكيد الخبر، والمقصود بالتأكيد: هو ما في سَوْق الخبر من التعريض بالتهديد والوعيد بالاستئصال"[٥٥].

- **التناسب بين أسلوب القسم وما قبله وما بعده:**

يسبق أسلوبَ القسم في مطلع سورة الشمس، قولُه تعالى في ختام سورة البلد: {ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ. أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْئَمَةِ. عَلَيْهِمْ نَارٌ مُؤْصَدَةٌ}[٥٦] حيث يعرض الحق . سبحانه . حال طائفتين ومصير

---

(٥٤) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، جـ٥، صـ٣١٥ .

(٥٥) تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، جـ٣٠، صـ٣٦٦.

(٥٦) سورة البلد، الآيات: من ١٧: ٢٠.

كلٍّ منهما، الأولى: طائفة المؤمنين أصحاب الميمنة، والأخرى: طائفة الذين كفروا أصحاب المشأمة، وفي ذكر الطائفتين ومصيرهما ما يناسب القسم في مطلع سورة الشمس؛ لما فيه من تضاد في بنية المقسم به، وتضاد كذلك في بنية الجواب، فمن زكا نفسه أفلح، ومن دساها خاب.

أما عن تناسب أسلوب القسم مع ما بعده، فالقسم يليه قوله تعالى: {كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَاهَا . إِذِ انبَعَثَ أَشْقَاهَا . فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا . فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُم بِذَنبِهِمْ فَسَوَّاهَا . وَلا يَخَافُ عُقْبَاهَا}[٥٧] فبعد مجيء أسلوب القسم، وما فيه من تأكيد على فلاح من زكى نفسه، وخيبة من دساها، ساق سبحانه نبأ ثمود، ففي نبأ ثمود، وما حاق بهم من عذاب، دليل من سيرة القرون السابقة على صدق وعيده سبحانه، ولعل في إيثار البيان القرآني ذكر ما حاق بثمود دون سواهم من القرون السابقة، إشارةً إلى أن من تزكية النفس الأخذ على يد الظالمين الأشقياء، ومحاولة نهيهم عن غيِّهم بما لا يترتب عليه مفسدة أكبر، وذلك بالقول الطيب والمجاهدة الحسنة، فمِن تدسية النفس ترك الظالمين الأشقياء يعيثون في الأرض فسادًا، ولذلك عاقب الله الجميع، إذ دمدم عليهم بذنبهم، على الرغم من أن الفاعل العاقر واحدٌ منهم فحسب.

هذا، وقد أتت فواصل الآيات في السورة كلها واحدة في انسجامها الصوتي، فالهاء الممدودة بالألف، كست نهايات آيات السورة جميعها، مما أثمر تناسبًا في النغم، فضلًا عن تناسب المعاني.

وهكذا تكشف دراسة التناسب عن ومضات دلالية ينبجس سناها بتتبع نظم الآيات، ومحاولة الكشف عن علاقات معانيها.

---

[٥٧] سورة الشمس، الآيات: من ١١: ١٥.

المطلب الثالث:

بلاغة تناسب أسلوب القسم في فاتحة سورة الليل

قال تعالى: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى . وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى . وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأنثَى. إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى}[٥٨].

- **السياق الواقعي للقسم:**

ورد في سبب نزول السورة عن ابن عباس: أن رجلًا كانت له نخلةٌ فرعها في دار رجل فقير ذي عيال، وكان الرجلُ إذا جاء ودخل الدار فصعد النخلة؛ ليأخذ منها التمر، فربما سقطت التمرة، فيأخذها صبيان الفقير، فينزل الرجل من نخلته حتى يأخذ التمرة من أيديهم، فشكا الرجل ذلك إلى النبي – صلى الله عليه وسلم – وأخبره بما يَلْقَى من صاحب النخلة، فقال له النبي – صلى الله عليه وسلم – اذهب، ولقي صاحبَ النخلة وقال: "تعطيني نخلتك المائلة التي فرعها في دار فلان، ولك بها نخلة في الجنة؟" فقال له الرجل: إن لي نخلًا كثيرًا وما فيها نخلةٌ أعجب إليَّ ثمرة منها، ثم أتى رجلٌ وساوم صاحبَ النخلة عليها، وأعطاها رسول الله فذهب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى صاحب الدار فقال: "إن النخلة لك ولعيالك"، فأنزل الله تبارك وتعالى: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى . وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى . وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى . إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى}[٥٩].

وروي: أن أبا بكر اشترى بلالًا من أمية بن خلف، فأعتقه، فأنزل الله تبارك وتعالى: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى} إلى قوله: {إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى} سعي أبي بكر وأمية بن خلف[٦٠].

والروايات وإن اختلفت حول سبب نزول السورة، فإنها تتفق على الإشارة إلى تنوّع سعى العباد عطاءً وبخلًا، وتنوع جزائهم بتنوع أعمالهم.

- **المقصد العام للسورة:**

ومقصودها: الدلالة على التصرف التام في النفوس بإثبات كمال القدرة بالاختلاف، وباختلاف الناس في السعي[٦١].

- **تناسب مقاطع المقسم به:**

يقول تعالى: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى. وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى . وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى}[٦٢] الحق . تعالى . يقسم بالليل إذا يغشى النهار أو الشمس أو كل شيء بظلمته، فيُذهب ضوءه، ويقسم بالنهار إذا أضاء فأنار، فظهر للأبصار ما كانت ظلمة الليل تُخفيه، ويقسم بالقادر العظيم القدرة الذي قدر على خلق الذكر والأنثى

---

(٥٨) سورة الليل، الآيات: من ١: ٤.

(٥٩) ينظر: أسباب نزول القرآن، الواحدي، تح/ عصام بن عبد المحسن الحميدان، صـ٤٥٤، دار الإصلاح ـ الدمام، ط الثانية، ١٤١٢هـ، والوسيط في تفسير القرآن المجيد، جـ٤، صـ٥٠١ .

(٦٠) ينظر: أسباب نزول القرآن، صـ٤٥٥، والوسيط في تفسير القرآن المجيد، جـ٤، صـ٥٠٣.

(٦١) ينظر: مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، جـ٣، صـ١٩٨.

(٦٢) سورة الليل، الآيات: من ١: ٣.

من ماء واحد[٦٣]، والقسم بالذكر والأنثى يتناول القسم بجميع ذوي الأرواح الذين هم أشرف المخلوقات؛ لأن كل حيوان إما ذكر أو أنثى[٦٤].

والمتأمل في مقاطع المقسم به، يراها بنيت على التضاد، حيث جمعت بين الليل والنهار، ويغشى وتجلى، والذَّكر والأنثى، فجهة التضاد تمثل رحم التناسب، الذي يجمع بين أجزاء المقسم به ويؤلف بينها. وقدم الليل والنهار؛ لأنهما ظرفان يستوعبان سعي الذكر والأنثى.

هذا، وقد جمعت صورة المقسم به بين الكونيّ والبشريّ، فالتنوُّع سُنة الله في خلقه من الكون والإنسان. وقد ربطت الواو بين مقاطع المقسم به، وشدت وثاق المقاطع، التي بدت كالكل المجتمع، الذي وقع في النفس المتلقية كالشيء الواحد.

- **التناسب بين المقسم به والمقسم عليه:**

المقسم به قوله تعالى: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى. وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى . وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى}[٦٥]، والجواب قوله تعالى: {إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى}[٦٦].

يقول الرازي: أقسم الله ـ تعالى ـ بهذه الأشياء على أن أعمال عباده لشتى، أي: مختلفة في الجزاء، وشتى جمع شَتِيْت، مثل: مرضى ومريض، وإنما قيل: للمختلف: شتى؛ لتباعد ما بين بعضه وبعضه، والشتات: هو التباعد والافتراق، فكأنه قيل: إن عملكم لمتباعد بعضه من بعض؛ لأن بعضه ضلالٌ وبعضه هدى، وبعضه يوجب الجِنان، وبعضه يوجب النيران، فشتَّانَ ما بينهما[٦٧].

وخيوط التناسب ممتدة بين الجواب المبني على التضاد والتباعد بين جهات سعى العباد من جهة، والمقسم به المبني على التضاد بين الليل والنهار والذكر والأنثى من جهة أخرى.

والقسم بقوله تعالى: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى. وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى . وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى}[٦٨] مَهَّدَ النفس المتلقية، بترسيخ مبدأ الاختلاف كسُنَّة كونية وبشرية، بذكر الاختلاف في محسوساتٍ مرئية للعِيان، حتى إذا ما ذُكِر الجواب، استقر في النفس المُمَهَّدة، وتعمق مطاويها، قال تعالى: {إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى}[٦٩] وفي ذلك من التأثير والإقناع ما لا يخفى.

وبعد الإجمال أتى التفصيل، قال تعالى: {فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى . وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى.

---

(٦٣) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن، جـ٢٤، صـ٤٦٥، والكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، جـ٤، صـ٧٦١ .

(٦٤) مفاتيح الغيب، جـ٣١، صـ١٨٢ .

(٦٥) سورة الليل، الآيات: من ١: ٣.

(٦٦) سورة الليل، الآية رقم: ٤.

(٦٧) ينظر: مفاتيح الغيب، جـ٣١، صـ١٨٢ .

(٦٨) سورة الليل، الآيات: من ١: ٣.

(٦٩) سورة الليل، الآية رقم: ٤.

وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى}[٧٠] وفي ذلك ما يزيد المعنى تجليةً ووضوحًا.

وتأمل أسلوب الترقي في التوكيد المصاحِب لرحلة المعنى في أسلوب القسم، حيث يقول تعالى: {وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَى} بصيغة المضارع، الذي يجعل المخاطَب يستحضر الحدث، ويتتبع حركته، ويتأمل أبعاد دلالته على قدرة الله المطلقة في خلق الاختلاف في الناموس الكوني، ثم يقول:{وَالنَّهَارِ إِذَا تَجَلَّى} بالماضي، ثم يرتقي البيان مُصعِّدًا توكيد المعنى، محفِّزًا العقول للركض وراء تشويق بلاغة البيان المعجِز، إذ يقول تعالى: {وَمَا خَلَقَ الذَّكَرَ وَالأُنْثَى} وذلك بصيغة الماضي المصحوبة بالطباق، الذي يُجلّي المعنى المراد ويزيده توكيدًا في أخلاد المتلقين، ثم بعد ذلك يأتي المقسم عليه: {إِنَّ سَعْيَكُمْ لَشَتَّى} في جملة إسمية، مستهلَّة بـ[إنَّ] ذات الطاقة التوكيدية التي منحت البنية التركيبية للجملة الاسمية ظلالًا من التوكيد لا تتحقق إلا بـ[إنَّ]، ثم في مجيء الركن العمدة للجملة مصدرًا، وركنها الثاني محلىً باللام المؤكِّدة، ما أفاض على جواب القسم ظلالًا من التوكيد ، يحمل المتلقي على التسليم بمضمون الجواب، ثم تمضي رحلة المعنى مع النظم المعجِز، من خلال تفصيل المجمل، وتفسير المبهم، حيث يقول تعالى: {فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى. فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى . وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى . وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى}.

- **التناسب بين أسلوب القسم وما قبله وما بعده:**

بعد أن أكد الحق . سبحانه وتعالى . في سورة الشمس، فلاحَ من زكَّى نفسه، وخيبةَ من دسَّاها، وساقَ جانبًا من قصة ثمود الذين طغوا، بتركهم قُدار بن سالف يَعقر الناقة، فلم يأخذوا على يديه . ظانين أنهم بعدم مشاركتهم في الفعل قد زَكُّوا أنفسهم . فحاق بهم عذاب الله، فدمدم عليه ربهم بذنبهم، وفي ذلك ما يؤكد اختلاف سعي العباد، وبَعد ذلك تأتي سورة الليل بمطلعها المبني على التضاد، حيث يقسم سبحانه بالليل إذا يغشى، والنهار إذا تجلى، والقادر الذي خلق الذكر والأنثى على أن سعي العباد لشتى.

وبهذا نرى التناسب يربط بين السور، فتبدو منسجمة الترتيب، محكمة النسج، يُسْلِم بعضها إلى بعض، فتمتد خيوط المناسبة تربط المعاني، وتَشُد أواصر المباني، وتؤكد انسجامها.

وبعد القسم في مطلع سورة الليل، يقول تعالى: {فَأَمَّا مَن أَعْطَى وَاتَّقَى . وَصَدَّقَ بِالْحُسْنَى . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْيُسْرَى . وَأَمَّا مَن بَخِلَ وَاسْتَغْنَى. وَكَذَّبَ بِالْحُسْنَى . فَسَنُيَسِّرُهُ لِلْعُسْرَى . وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى. إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى . وَإِنَّ لَنَا لَلآخِرَةَ وَالأولَى . فَأَنذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى . لا يَصْلاهَا إِلا الأَشْقَى . الَّذِي كَذَّبَ وَتَوَلَّى . وَسَيُجَنَّبُهَا الأَتْقَى . الَّذِي يُؤْتِي مَالَهُ يَتَزَكَّى . وَمَا لِأَحَدٍ عِندَهُ مِن نِّعْمَةٍ تُجْزَى . إِلا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِ الأَعْلَى . وَلَسَوْفَ يَرْضَى}[٧١].

المتأمل فيما تلا أسلوبَ القسم، يلحظ

---

(٧٠) سورة الليل، الآيات: من ٥: ١٠.

(٧١) سورة الليل، الآيات: من ٥: ٢١.

التناسب الذي تمتد خيوطه ما بين القسم وما تلاه، فإذا كان القسم بُنِي على التضاد بين الليل والنهار ، والذكر والأنثى، مما يؤكد على فكرة الاختلاف كسُنَّة كونية وبشرية، تتحقق في الناموس الكوني، والنظام البشري، فقد أتى ما بعد القسم منسجمًا مع هذا المعنى، حيث بُنى ما بعد القسم على التضاد؛ إبرازًا للفرق بين من أعطى واتقى وصدق بالحسنى وما له من جزاء، ومن بخل واستغنى وكذب بالحسنى وما له من جزاء، وبين الإنذار بالنار التي يَصلها الأشقى الذي كذب وتولى، وتَجَنُّب الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى لتلك النار.

وفي ذكر هذا المعنى الغيبي المبني على التضاد، بعد المعنى المحسوس المشاهَد المتكرر المبني على التضاد . كذلك . ترقٍ من دائرة المشاهد المحسوس إلى الغيبي السمعي، وفي بناء النظم على تلك الصورة من الإقناع والتأثير ما لا يخفى، فالقسم بالمحسوس مثَّل مهادًا للنفس المتلقية؛ إذ بثَّ في أثنائها من دواعي التسليم للحقيقة التي تلت أسلوب القسم، ما يحمل المتلقي على الإذعان للخبر الغيبي.

وفي تناسب مقادير آيات أسلوب القسم وما بعده، ما أسهم في تشكيل التناسب والانسجام الصوتي في النظم، فتقارب امتدادات المقاطع الصوتية في الآيات، أضفى على النظم توافقًا وتآخيًا صوتيًا جعل القسم وما بعده كالكل المجتمع، فضلًا عن بناء فواصل آيات أسلوب القسم وما بعده على الألف المقصورة، مما أكمل صورة التناسب، فبدت السورة في نظم بديع معجز، خارق لعادات البشر في نظوم كلامهم، وصياغات معانيهم، كما في جُلِّ القرآن، فسبحانه من هذا بيانه!!

المطلب الرابع:

بلاغة تناسب أسلوب القسم في فاتحة سورة الضحى

قال تعالى: {وَالضُّحَى . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى . وَلَلْأَخِرَةُ خَيْرٌ لَّكَ مِنَ الأُولَى . وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى}[٧٢].

- **السياق الواقعي للقسم:**

روي: أن امرأة من قريش قالت للنبي – صلى الله عليه وسلم – ما أرى شيطانَك إلا قد وَدَّعَكَ، فنزل: {وَالضُّحَى . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى. مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى}[٧٣] رواه البخاري. وروي: أن جبريل ـ عليه السلام ـ أبطأ على النبي ـ صلى الله عليه وسلم ـ فَجَزِعَ جَزَعًا شديدًا، فقالت له خديجة: قَدْ قَلَاكَ رَبُّكَ لِمَا يَرَى مِنْ جَزَعِكَ، فَأَنْزَلَ اللَّه تعالى: {وَالضُّحَى . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى}[٧٤].وليس بين الروايتين تضاد، بل يُجمع بينهما بوقوعهما معًا.

- **المقصد العام للسورة:**

إن مقصود سورة الضحى: "الدلالة على آخر الليل، بأنَّ أتقى الأتقياء، الذي هو الأتقى على الإطلاق في عين الرضا دائمًا، لا ينفك عنه في دنيا ولا في آخرة؛ لما تحلى به من صفات الكمال، التي هي الإيصال للمقصود، بما لها من النور المعنوي، كالضحى بما له من النور الحسي، الذي هو أشرف ما في النهار"[٧٥] كما تؤكد السورة أن عطاء الله لأوليائه لا ينقطع، وإن تأخر لحكمة عليا يعلمها الله ـ تعالى ـ .

- **التناسب بين مقاطع المقسم به:**

"قوله تعالى: {وَالضُّحَى . وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى} هذا قسم، وجوابه: {مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى}"[٧٦].

أقسم ربنا ـ جلَّ ثناؤه ـ بالضحى، وهو من قولهم: ضَحِيَ فلانٌ للشمس: إذا ظهر، ومنه قوله: {وَأَنَّكَ لا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلا تَضْحَى}[٧٧] أي: لا يُصيبك فيها الشمس، عُنِي به وقت الضحى، فـ[الضُّحَى] ساعة من ساعات النهار[٧٨]. أما قوله تعالى: {وَاللَّيْلِ إِذَا سَجَى} فـ" ذكر أهل اللغة في سجى ثلاثة أوجه متقاربة: سكن وأظلم وَغَطَّى"[٧٩]. فالله ـ تعالى ـ أقسم بوقت الضحى، وبالليل إذا سجى، وذهب بعضهم إلى القول بإضمار لفظة:[رب] قبل الضحى والليل، يقول القرطبي: "قال أهل المعاني...فيه إضمار، مجازه: وربِّ الضحى"[٨٠] ولا أرى وجهًا لذلك؛

---

(٧٢) سورة الضحى، الآيات: من ١: ٥.

(٧٣) سورة الضحى، الآيات: من ١: ٣.

(٧٤) ينظر: أسباب نزول القرآن، صـ ٤٥٧.

(٧٥) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور،جـ٣، صـ٢٠٢.

(٧٦) معاني القرآن وإعرابه، جـ٥، صـ٣٣٩.

(٧٧) سورة طه الآية رقم: ١١٩.

(٧٨) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن، جـ٢٤، صـ ٤٨٢.

(٧٩) مفاتيح الغيب، جـ٣١، صـ١٩٠.

(٨٠) الجامع لأحكام القرآن، تح/ أحمد البردُّوني وإبراهيم أطفيش، جـ٢٠، صـ٩١، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط الثانية،١٣٨٤هـ .

فالحق سبحانه يقسم بالضحى والليل إذا سجى؛ لدلالات وإشارات تكمن وراء إيثار الضحى والليل إذا سجى للقسم بهما على المقسم عليه المذكور دون غيرهما، مما أقسم به سبحانه، وذلك لخَصوصية اقتضاها المقام.

هذا، والعلاقة بين الضحى والليل إذا سجى، علاقة تضاد، وفي التضاد ما يؤكد على طلاقة قدرة الله . تعالى . فمن يأتي بالمتضادين المحسوسين على الترتيب والدوام، لا شك في طلاقة قدرته، ونفاذ كلمته، وكمال حكمته، واقتداره على إعادة الوحي مرة أخرى، بعد أن انقطع نوره.

- **التناسب بين المقسم به والمقسم عليه:**

بُني المقسم به في مطلع سورة الضحى على التضاد بين أمرين محسوسين مشاهَدين بحاسَّة البصر، التي هي أهم وسائل الإدراك والعلم اليقيني، فالحق . سبحانه . عندما دعا الناس لإدراك مظاهر قدرته المطلقة، قال سبحانه: {الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ طِبَاقًا مَّا تَرَى فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَاوُتٍ فَارْجِعِ الْبَصَرَ هَلْ تَرَى مِن فُطُورٍ . ثُمَّ ارْجِعِ الْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ الْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِير}[٨١] وبعد القسم بالمحسوس المشاهَد بالبصر، أتى جواب القسم، وهو قوله تعالى:{مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى} مناسبًا للمقسم به في المعنى، فالذي يَقْدِر على الإتيان بالضحى بعد الليل الساجي، قادرٌ . لا شك . على إنزال الوحي عليك يا محمد بعد فتوره، وفي ذلك بشارة للنبي الكريم . صلى الله عليه وسلم . ، بأن الوحي سيعود يتنزل عليه . صلى الله عليه وسلم . من جديد، وإذا كان الوحي قد انقطع فترة، فإن طلاقة القدرة التي جمعت بين الضدين في مشهد محسوس متكرر، لا يُعجزها أن يتنزل الوحي من جديد.

وفي تقديم الضحى على الليل من كمال تلك البشارة وتوكيدها ما لا يخفى، فالاستهلال بالضحى يجعل البشارة أول ما يصل للسمع والوجدان، ففي تقديم الضحى على الليل من الأسرار والإشارات ما تسبح فيه الخواطر والعقول.

وفي التمهيد بالضحى والليل الساجي المحسوسين لأمر غيبي قبل تحققه في الواقع، ما يهيئ النفس المتلقية، ويُعبد مساربها لقبول الجواب الغيبي، بعد أن قامت شواهد من الكون المنظور تؤكد طلاقة القدرة الربانية.

إننا حين نمعن النظر في القسم في فاتحة سورة الضحى، نجده يأتي لافتًا إلى صورة مادية مُدرَكة، وواقع مشهود، إنه توطئة بيانية لصورة أخرى معنوية مماثلة، غير مشهودة ولا مدرَكة، يماري فيها من يماري، فالقرآن الكريم في قسَمِه بالمادي يمهد للمعنوي، فتقبله النفس دون تكلف أو قسر، والمقسَم به في سورة الضحى، صورة مادية وواقع حسي، يشهده الناس كل يوم حيث تألق الضوء في ضحوة النهار، ثم فتور الليل إذا سجا وسكن، دون أن يختل نظام الكون، فأي عجب في أن يجيء بعد أنس الوحي وتجلي نوره على المصطفى . صلى الله عليه

---

(٨١) سورة الملك، الآيتان:٣، ٤ .

وسلم . فترة سكون، يفتر فيها الوحي، على نحو ما نشهد من الليل الساجي، يوافي بعد الضحى المتألق!![٨٢].

فقدم الضحى؛ لأنه وقت اجتماع الناس، وكمال الأُنس بعد الاسْتِيحَاشِ في زمان الليل، فَبُشِّر النبي . صلى الله عليه وسلم . أن بعد استيحاشك بسبب احتباس الوحي يظهر ضحى نزول الوحي[٨٣]، وفي ذلك تكريم للنبي الكريم . صلى الله عليه وسلم . وطمأنة له بأن نور السماء لن ينقطع، وهكذا يحمل القسم طمأنة للنفس النبوية الشريفة، بأن الوحي سيتنزل عليه . صلى الله عليه وسلم . مرة أخرى.

ومما يستلفت النظر في القسم ، أن البيان القرآني ذكر الضحى وهو جزء من النهار، وذكر الليل بكليته ، وفي ذلك توكيد لمعنى البشارة بأن نور الوحي لن يتخلف عن النبي الكريم . صلى الله عليه وسلم . يقول الرازي: "ما السبب في أنه ذكر الضحى وهو ساعة من النهار، وذكر الليل بكليته؟ الجواب، فيه وجوه: أنه إشارة إلى أن ساعة من النهار توازي جميع الليل"[٨٤] ، وأرى: أن وراء ذلك سرًا آخر، وهو أن وقت تنزل الوحى على الرسول الكريم محدود إذا ما قورن بمدة الانقطاع، ولكن وقت تنزل الوحى له في نفس النبي الكريم . صلى الله عليه وسلم . إشراقات تسطع أنوارها؛ لتغمر الجناب النبوي الشريف، وأن الوحي عندما يعاود النزول على النبي الكريم ستمحو أنواره العلوية معاناة النبي الكريم وحزنه الممض بسبب الانقطاع.

ويقول د/فاضل صالح السامرائي: "هذا القسم يشير إلى أن هذا الانقطاع ليس إلا استجمامًا وسكونًا ترتاح فيه النفس، كما يستريح المُتْعَب في النهار إلى سكون الليل وهدأته، وكلا ذَيْنِكَ نعمة من نعم الله؛ فالضحى وما فيه من نور وحركة نعمة، والليل وما فيه من سكون وراحة نعمة تقابل نعمة النهار"[٨٥].

- **التناسب بين أسلوب القسم وما بعده وما قبله:**

تمتد روابط المعاني بين مطلع سورة الضحى وسورة الليل، يقول الغرناطي: "لما قال تعالى: "{فألهمها فجورها وتقواها}، ثم أتبعه بقوله: {فسنيسره} وبقوله: {إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى . وَإِنَّ لَنَا لَلْآخِرَةَ وَالْأُولَى} فلزم الخوف، واشتد الفزع، وتعين على الموحِّد الإذعان بالتسليم، والتضرُّع في التخلص، والتجاؤه إلى السميع العليم، آنس تعالى أحب عباده إليه، وأعظم منزلة لديه، وذكر له ما منحه من تقريبه واجتبائه وجمع خير الدارين له، فقال: {وَالضُّحَى . وَاللَّيْلِ إِذَا

---

[٨٢] ينظر: التفسير البياني للقرآن الكريم، جـ١، صـ٢٥ وما بعدها .

[٨٣] ينظر: مفاتيح الغيب، جـ٣١، صـ١٩١.

[٨٤] مفاتيح الغيب، جـ٣١، صـ١٩١.

[٨٥] على طريق التفسير البياني، د/ فاضل صالح السامرائي، جـ١، صـ ١١٠، النشر العلمي . جامعة الشارقة، بدون تاريخ.

سَجَى . مَا وَدَّعَكَ رَبُّكَ وَمَا قَلَى . وَلَلْآخِرَةُ خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى}"[٨٦]

وأرى: أن الحق ـ سبحانه ـ بعد أن أكد في نهاية سورة الليل، أن الأتقى الذي يؤتي ماله يتزكى ابتغاء وجه ربه، سيُعطيه الله حتى يرضى، أقسم بالضحى والليل الساجي على أنه سيُرضِي أفضل خلقه محمدًا . صلى الله عليه وسلم . بعودة الوحي بعد فتوره. فالعطاء حتى الرضا وعد الله لعباده أجمعين.

ولا يخفى أن القسم وجوابه يتناسبان مع ما أتى بعدهما في السورة، من تَعداد جانب من نعم الله . تعالى . على نبيه . صلى الله عليه وسلم . حيث عدد سبحانه مننه على نبيه محمد . صلى الله عليه وسلم . فقال: ألم يجدك يتيمًا لا أب لك، قد مات أبوك، فآوى، أي: جعل لك مأوىً تأوي إليه عند عمك أبي طالب، فكفلك، ووجدك ضالًا، أي: في قوم ضُلَّال، فهداهم الله بك، ووجدك فقيرًا لا مال لك، فأغنى، أي: فأغناك[٨٧] فما بعد القسم وجوابه يمثل دليلًا واقعيًا من حياة النبي الكريم . صلى الله عليه وسلم . يقول سبحانه: {وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ فَتَرْضَى . أَلَمْ يَجِدْكَ يَتِيمًا فَآوَى . وَوَجَدَكَ ضَالا فَهَدَى . وَوَجَدَكَ عَائِلا فَأَغْنَى}[٨٨].

والجامع بين أسلوب القسم وما قبله وما بعده، أن الله تعالى لا يقطع فضله عن نبيه . صلى الله عليه وسلم . وعن أوليائه، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء. وهكذا تمتد خيوط التناسب بين القسم وجوابه فتخرق عادات البشر في كلامهم، وتعرض لنا ملمحًا من ملامح الإعجاز البلاغي في القرآن الكريم.

---

(٨٦) البرهان في تناسب سور القرآن، الغرناطي، تح/ محمد شعباني، صـ٣٦٥، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية . المغرب، ١٤١٠ هـ .

(٨٧) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، جـ٢٠، صـ ٩٦ ،٩٧.

(٨٨) سورة الضحى، الآيات من ٥ : ٨ .

المبحث الثاني:

بلاغة تناسب أسلوب القسم في فواتح السور ذوات الأقسام المبنية على التوافق

وفيه ثلاثة مطالب:

بالنظر في المقسم به في فواتح سور الحزب الأخير من القرآن الكريم، نرى أن المقسم به في فواتح سور: البلد، والتين، والعاديات، تجمع بين مقاطعه جهة التوافق، وفيما يلي بيان ذلك.

المطلب الأول:

بلاغة تناسب أسلوب القسم في فاتحة سورة البلد

يقول تعالى: {لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ . وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ . وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ . لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ}[٨٩].

- **المقصد العام للسورة:**

يقول البقاعي: "ومقصودها: نفي القدرة عن الإنسان، وإثباتها لخالقه الديان، وذلك هو معنى اسمها، فإن من تأمل أمان أهل الحرم، وما هم فيه من الرّزق والخير، على قلة الرّزق ببلدهم، مع ما فيه غيرهم ممن هم أكثر منهم وأقوى من الخوف والجوع، علم ذلك."[٩٠]، ولعل من الأولى، الوقوف على مقصد السورة من خلال نظمها القرآني، لا من خلال اسمها فحسب، وبتتبع النظم القرآني للسورة، يمكن القول: بأن المقصد العام للسورة تسلية النبي . صلى الله عليه وسلم . عما وقع له من إيذاء من المشركين في مكة، ولعل في مكية السورة ما يشفع لهذا القول.

- **التناسب بين مقاطع المقسم به:**

المقسم به قوله تعالى: {لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ . وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ. وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ }[٩١]، والجواب قوله تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ}.

قوله تعالى: {لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَد}: أجمع المفسرون على أن هذا قسم بالبلد الحرام مكة.[٩٢] وفي قوله . تعالى . : {لا أقسم} تفسيرات:

أولها: يقول بإيجاب القسم فـ{لا أقسم} بمعنى: أقسم[٩٣].

والثاني: يقول بالنفي فـ{لا} في {لا أقسم} "نَفْيٌ صَحِيحٌ، وَالْمَعْنَى: لَا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ إِذَا لَمْ تَكُنْ فِيهِ، بَعْدَ خُرُوجِكَ مِنْهُ"[٩٤].

والثالث: يرى أن القسم يحتمل أمرين، يقول:"{لا أقسم} أي: أقسم قسمًا أثبتُ مضمونه وأنفي ضده، ويمكن أن يكون النفي على ظاهره، والمعنى أن الأمر في الظهور غني عن

---

(٨٩) سورة البلد، الآيات: من ١ :٤.

(٩٠) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، جـ٣، صـ ١٩٣.

(٩١) سورة البلد، الآيات: من ١ :٣.

(٩٢) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن، جـ٢٤، صـ٤٣٠، والوسيط في تفسير القرآن المجيد، جـ٤، صـ ٤٨٨، ومفاتيح الغيب، جـ٣١، صـ ١٦٤.

(٩٣) ينظر: الوسيط في تفسير القرآن المجيد، جـ٤، صـ٤٨٨ .

(٩٤) الجامع لأحكام القرآن، جـ٢٠، صـ٦٠.

الإقسام، حتى بهذا القسم الذي أنتم عارفون بأنه في غاية العظمة."[٩٥] وأرى: رأي من قال بإيجاب القسم فـ{لا أقسم} بمعنى: أقسم، وفي معنى قوله تعالى: {وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ} أقوال: يقول الطبري: "وقوله: {وَأَنْتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ} يعني: بمكة؛ يقول جلَّ ثناؤه لنبيه محمد . صلى الله عليه وسلم . : وأنت يا محمد حِلٌّ بهذا البلد، يعني بمكة، يقول: أنت به حلال تصنع فيه مِنْ قَتْلِ مَنْ أردتَ قتلَه، وأَسْرِ من أردتَ أسره."[٩٦]، ويقول النيسابوري: "لا أُقْسِمُ بِهذَا الْبَلَدِ: أي: وأنت مُستحَل الحرمة، فيكون واو وَأَنْتَ، واو الحال، وهذا قبل الهجرة."[٩٧] وقوله تعالى: {ووالد وما ولد} "يشمل كل والد وولده، يدخل فيه ما ذكره الأولون ولا يخصهم"[٩٨].

والتناسب جليٌّ في القسم ذاته، يقول تعالى: {لا أُقْسِمُ بِهَذَا الْبَلَدِ . وَأَنتَ حِلٌّ بِهَذَا الْبَلَدِ . وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ}[٩٩] أقسم سبحانه وتعالى بمكة التي استُحِلتْ فيه حرمة النبي الكريم . صلى الله عليه وسلم . فأوذي من قومه، وعانى بسببهم، وكابد الحياة في جوارهم، فبشره ربه . سبحانه وتعالى . بفتح مكة، وأحل له . صلى الله عليه وسلم . حرمة مكة، بأن جعل له أمر عقاب من طغى من أهلها باستحلال حرمة النبي الكريم ص، "واعترض بين القسم والمقسم عليه بقوله: وَأَنْتَ حِلٌّ بِهذَا الْبَلَدِ يعنى: ومن المكابدة أن مثلك ـ على عظم حرمتك ـ يُستحَل بهذا البلد الحرام، كما يُستحَل الصيد في غير الحرم"[١٠٠] كما أقسم سبحانه بالخلق كلهم، فكنَّى عنهم بالوالد وما ولد، وما يلحقهما من مشقةٍ وعناء، فالحياة من بدايتها حتى نهايتها مبنية على المكابدة والمعاناة، والأحياء كلهم لم يسلموا من الكبد، لذا قال سبحانه: {وما ولد} ولم يقل {ومن ولد}، فمقاطع القسم بينها رحم من التناسب، تجمع معانيه الجزئية، وتؤلف بينها في نسق تركيبي متناغم متماسك، فالقسم أتى في سبك محكم، يأخذ بعضه بعناق بعض.

وقد أتت مقاطع المقسم به مبنيةً على التوافق، ولعل وراء ذلك تأكيد الكبد والابتلاء، فهو سنة إلهية، يخضع لسلطانها القاهر الخلق كلهم، النبي محمد . صلى الله عليه وسلم . وكل والد وما ولد.

- **التناسب بين المقسم به والمقسم عليه:**

لا يخفى ما في الابتداء بالقسم والإطالة فيه من التشويق للجواب، فيأتي الجواب بعد أن

---

(٩٥) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، جـ٢٢، صـ٤٦ .

(٩٦) جامع البيان في تأويل القرآن، جـ٢٤، صـ٤٣٠ .

(٩٧) إيجاز البيان عن معاني القرآن، أبوالقاسم النيسابوري، تح: الدكتور/ حنيف بن حسن القاسمي، جـ٢، صـ٨٧٧، دار الغرب الإسلامي ـ بيروت، ط الأولى، ١٤١٥هـ .

(٩٨) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، د/ فاضل صالح السامرائي، صـ٢٥٢ ، دار عمار للنشر والتوزيع ـ عمان ـ الأردن، ط الثالثة، ١٤٢٣هـ.

(٩٩) سورة البلد، الآيات: من ١ :٣.

(١٠٠) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، جـ٤، صـ٧٥٣ .

مُهدت النفس لتلقيه، وهيئت لاستقباله، فيكون له معها أثر، يقول ابن عاشور: "ابتدئت بالقسم؛ تشويقًا لما يَرِد بعده، وأُطيلت جملة القسم زيادةً في التشويق...وفائدة الإتيان باسم الإشارة، تمييز المقسم به أكمل تمييز؛ لقصد التنويه به"[١٠١] فهو جزءٍ من بنية القسم، يؤدي مع الجواب دلالة مولَّدة عنهما معًا.

إن القسم في قوله تعالى: {لَا أُقْسِمُ بهذا البلد...} يتناسب معناه مع معنى الجواب في قوله تعالى: {لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي كَبَدٍ}؛ حيث إن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يَلْقى ما يَلْقى من قومه من مشقة ومكابدة، وهو يبلِّغ دعوة ربه في مكة، وهي البلد التي أقسم بها الحق سبحانه، فالتناسب بين القسم وجوابه، يعكس تسلية الحق سبحانه للنبي الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ وتسريته عنه، فإذا عانيت وكابدت يا محمد في مكة مع المشركين، فجنس البشر مخلوقون في كبد، لا يُستثنَى من ذلك أحد، فالدار دار ابتلاء وامتحان، وفي ذلك ما يُبرز جهة التناسب بين القسم وجوابه.

وبالتأمل ندرك أن دلالات مفردات القسم مرتبطةٌ بالجواب في قوله: [لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسانَ فِي كَبَدٍ] فـ[البلد] مكة هي تلك التي كابد فيها رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ مع المشركين.

والـ[حِلُّ] لها أكثرُ من معنى، وهي في كل معانيها مرتبطة بالكَبَد:

ـ فهي إذا كانت بمعنى الحالِّ والمقيم فهي مرتبطة به، ذلك أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ في أثناء حلوله في مكة كان يكابد، ويتحمل من أصناف الأذى والمشاق الشيء العظيم، فهو في كَبَدٍ من ذلك، وكان يتلقَّى ذلك بصبرٍ وثبات وقوة.

ـ وإذا كانت بمعنى اسم المفعول، أي: مستَحَلٌّ قتلُكَ وإيذاؤك لا تُراعَى حرمتُك، فهي مرتبطة بالكَبَد ارتباطًا واضحًا كله مشقة ونَصَب.

ـ وإذا كانت بمعنى الحلال ضد الحرام، أي: يَحِلُّ لك أنْ تَقتلَ من تشاء وتأسر من تشاء، وذلك في يوم الفتح، فارتباطها بها كذلك واضح؛ ذلك لأن الكفار آنذاك في كَبَد ومشقة، وأنت والمسلمون في قوة وغلبة ونصر، فعند ذلك تكون مرتبطةً بالكَبَد بمعنييها، المشقة والقوة.

ـ وإذا كانت بمعنى أنك حِلٌّ من أعمالهم متحرِّجٌ من آثامهم بريء منها، فهي مرتبطة بالكبد كذلك؛ لأنه يكابِد ويجاهِد؛ ليخرج عن مألوفِ عاداتِ قومه وأفعالهم، ويكابد للقيام بفضائل الأعمال وجلائلها، فلفظة: [حِلٌّ] في كلِّ معانيها مرتبطة بالجواب أحسن ارتباط وأتمَّه. وكذلك قوله: {وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدَ} مرتبط بالجواب أحسن ارتباط وأتمَّه، فهو مرتبط بـ[الكبد] بمعنييه: المشقة والقوة؛ فالولادةَ مشقةٌ وعنت، وهي تحتاج إلى قوة ومثابرة ومكابدة؛ لحفظ المولود وتربيته وبقائه وتوفير غذائه[١٠٢].

---

(١٠١) تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، جـ٣٠، صـ٣٤٦

(١٠٢) ينظر: لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، صـ٢٥٥ ـ ٢٥٦.

والمتأمل في الجواب تستوقفه المؤكِّدات التي تعددت في الجواب، حيث نرى اللام الداخلة على [قد]، و[قد] الداخلة على الفعل الماضي:[خلقنا}، و[أل] التي هي لاستغراق الجنس في [الإنسان]، و[في] الوعائية، ولفظة: [كَبَدٍ] المُنَكَّرة للتعظيم والتهويل، كل ذلك أكد المعنى ورسَّخه، وأقام حوله ظلالًا من الطاقة التوكيدية، والتأكيد في الجواب ناسب التأكيد في المقسم به والإطالة فيه بتعدد مقاطعه.

ومن صور التناسب بين القسم وجوابه، وحدة الفاصلة، حيث أتت الدال فاصلة في آيات القسم وجوابه، فكانت تلك الفاصلة الواحدة جهةً من جهات التناسب الصوتي، والذي يضاف لتناسب المعاني، كما تعكس فاصلة الدالة المكابدة والمعاناة التي تظلل القسم وجوابه، فصوت الدال بما فيه من شدة وقوة يعكس المعنى المراد، فالحروف أشباه معانيها، فالدال حرف قوي يمتنع جريان الصوت معه، حيث إن "صوت الدال أصمٌّ أعمى مغلق على نفسه...لا يوحي إلا بالأحاسيس اللمسية، وبخاصة ما يدل على الصَّلابة والقساوة، وكأنه من حجر الصوان، فليس في صوت الدال أيُّ إيحاء بإحساس ذوقي أو شمِّي أو بصري أو سمعي أو شعوري، ليكون بذلك أصلح الحروف للتعبير عن معاني الشدة والفعالية الماديتين"[(١٠٣)]، وإتيانه فاصلة للقسم والجواب مثل رابطًا صوتيًا يجمع بينهما، مما قوَّى التناسب.

ومن صور التناسب بين القسم وجوابه، تناسب مقادير آيات القسم والجواب، فآيات كل من القسم والجواب متقاربة للغاية في مقاديرها.

وهكذا تتنوع صور التناسب في أسلوب القسم، مما منح نظمه تماسكًا وانسجامًا، جعلا ذلك الأسلوب يقع في نفس المتلقي دفقة واحدة فيؤثر فيه إمتاعًا وإقناعًا.

- **التناسب بين أسلوب القسم وما قبله وما بعده:**

تسبق سورةُ الفجر سورة البلد، يقول البقاعي: "لما خَتَمَ كلمات الفجر بالجنة التي هي أفضل الأماكن التي يسكنها الخلق، لا سيما المضافة إلى اسمه الأخص المُؤْذِن بأنها أفضلُ الجِنان، بعدما ختم آياتها بالنفس المطمئنة، بعد ذكر الأمَّارة التي وقعت في كَبَد الندم الذي يتمنى لأجله العدم، بعدما تقدم من أنها لا تزال في كبد ابتلاء المعيشة في السراء والضراء، افتتح هذه بالأمارة مقسِمًا في أمرها بأعظم البلاد وأشرف أولي الأنفس المطمئنة"[(١٠٤)]. ولا أرى وجهًا لما ذكره البقاعي . رحمه الله . إنما أرى: أن القسم وجوابه وما فيهما من معنى الكبد والابتلاء والمعاناة ناسبه ما جاء في سورة الفجر من حديث عن الابتلاء بالإكرام بالنعيم أو الابتلاء بقدر الرزق، وما أعقب ذلك من حديث

(١٠٣) خصائص الحروف العربية ومعانيها، د/ حسن عباس، صـ ٦٢، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٨م .

(١٠٤) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، جـ٢٢، صـ٤٥ .

عن الابتلاء والكبد يوم القيامة فحال الناس يومئذ ما بين معذَّب ومنعَّم، يقول تعالى: {إِنَّ رَبَّكَ لَبِالْمِرْصَادِ . فَأَمَّا الانسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ . وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ . كَلا بَل لا تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ . وَلا تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ . وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلا لَّمًّا . وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبًّا جَمًّا . كَلا إِذَا دُكَّتِ الأَرْضُ دَكًّا دَكًّا . وَجَاء رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا . وَجِايءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الانسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى . يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي . فَيَوْمَئِذٍ لا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ . وَلا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ . يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ . ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً . فَادْخُلِي فِي عِبَادِي . وَادْخُلِي جَنَّتِي}[١٠٥].

كما أن القسم وجوابه في مطلع سورة البلد وما فيهما من معنى الكبد والابتلاء، يناسبهما ما جاء بعدهما في السورة نفسها، من حديث عن صنفين، أسفر ابتلاؤهما في دار العمل عن صنفين في الآخرة، هما: أصحاب الميمنة وأصحاب المشأمة، يقول تعالى: {ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ . أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ . وَالَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا هُمْ أَصْحَابُ الْمَشْئَمَةِ . عَلَيْهِمْ نَارٌ مُّؤْصَدَةٌ}[١٠٦].

وهكذا تمتد خيوط التناسب، ومظاهر الانسجام بين القسم وجوابه من ناحية، وما قبله وما بعده من ناحية أخرى، مما يعكس نظم القرآن المعجز، الخارق لعادات البشر في كلامهم.

---

(١٠٥) سورة الفجر، الآيات: من ١٤ : ٣٠ .

(١٠٦) سورة البلد، الآيات من ١٧ : ٢٠ .

المطلب الثاني:

بلاغة تناسب أسلوب القسم في فاتحة سورة التين

يقول تعالى: {وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ . وَطُورِ سِينِينَ . وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ . لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[١٠٧].

- **المقصد العام للسورة:**

ومقصودها: "إثبات القدرة الكاملة، وهو المشار إليه باسمها، فإن في خلق التين والزيتون من الغرائب، ما يدل على ذلك، وكذا فيما أشير إليه بذلك من النبوات، وضم القسم إلى المقسم عليه وهو الإنسان... واضح في ذلك"[١٠٨].

- **التناسب بين مقاطع المقسم به:**

يقول تعالى: {وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ . وَطُورِ سِينِينَ . وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ}[١٠٩]، قيل: التِّين: الذي يؤكل، وَالزَّيْتُون: الذي يُعصر منه الزيت؛ لأن ذلك هو المعروف عند العرب[١١٠]، وقيل: القَسَم بمنابتها، يقول الرازي: فكأنه تعالى أقسم بمنابت الأنبياء، فالجبل المختص بالتين لعيسى . عليه السلام . ، والزيتون الشأم، مبعث أكثر أنبياء بني إسرائيل، والطور مبعث موسى . عليه السلام . ، والبلد الأمين مبعث محمد . صلى الله عليه وسلم

---

(١٠٧) سورة التين، الآيات: من ١:٤ .

(١٠٨) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، جـ٣، صـ٢٠٩.

(١٠٩) سورة التين، الآيات: من ١:٣ .

(١١٠) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن، جـ٢٤، صـ٥٠٣.

. ، فيكون المراد من القسم في الحقيقة، تعظيم الأنبياء وإعلاء درجاتهم[١١١].

أقسم سبحانه بالتين والزيتون وطور سنين والبلد الأمين مكة، وبين مقاطع المقسم به جهات من التناسب، يقول ابن القيم: "أقسم بالبلد الأمين، وهو مكة، مظهر خاتم أنبيائه ورسله سيد ولد آدم، وترقى في هذا القسم من الفاضل إلى الأفضل، فبدأ بموضع مظهر المسيح، ثم ثنَّى بموضع مظهر الكليم، ثم ختمه بموضع مظهر عبده ورسوله وأكرم الخلق عليه"[١١٢] ففي مقاطع المقسم به ترقٍ من الفاضل إلى الأفضل وهي مكة المكرمة، ولعل في الترقي من الفاضل إلى الأفضل في القسم ما ناسب القسم على الإنسان؛ لأنه المخلوق المُكرَّم غاية التكريم، فهو الذي جعله الله خليفة في الأرض، ولذلك أقسم الله بخلقه في أحسن تقويم.

وفي الجمع بين عناصر المقسم به، جمع بين أماكن مقدَّسة، لها من المهابة والتجلَّة ما ليس لغيرها، فهي مُشَرَّفة بتشريف الأنبياء لها، حيث سطع فوقها نور الشرائع السماوية، التي أزالت الظلمات، وأتت بالنور والهدى. وقد أتت مقاطع المقسم به متناسبة المقدار، مما أسهم في تماسكها وانسجامها وترابط أجزائها.

- **التناسب بين المقسم به والمقسم عليه:**

قوله تعالى: {وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ . وَطُورِ سِينِينَ . وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ}[١١٣]. إقسام منه . سبحانه . بالأمكنة الشريفة المعظمة التي ظهر فيها نوره وهداه، وأَنزل فيها كتبه، فأقسم بها على وجه التدريج درجة بعد درجة، فختمها بأعلى الدرجات، فأقسم أولا بالتين والزيتون، ثم بطور سينين، ثم بمكة؛ لأن أشرف الكتب الثلاثة القرآن ثم التوراة ثم الإنجيل. وكذلك الأنبياء، فهذه الآية قسم بأول مهابط الوحي، وأكرم أماكن التجلي الإلهي على أنبيائه الذين بقيت شرائعهم، وأرسلهم الله لهداية الناس الذين خلقهم في أحسن تقويم[١١٤].

والقسم هنا بمنابت الأنبياء، وهي الأماكن الثلاثة، على أن الإنسان خلق في أحسن تقويم جسدي وعقلي وفطري، "في أكمل عقل وفهم وأدب وعلم وبيان"[١١٥] ممتلِكًا لمقومات الاختيار بين النَّجدَين، ثم متروكًا ليختار ما بين الهداية التي تمثلها شرائع الله . تعالى . والغواية ويمثلها كل ما سوى الشرائع السماوية.

---

(١١١) مفاتيح الغيب، جـ٣٢، صـ٢١١.

(١١٢) التبيان في أيمان القرآن، صـ٧١ .

(١١٣) سورة التين، الآيات: من ١:٣ .

(١١٤) ينظر: محاسن التأويل، تح/ محمد باسل عيون السود،جـ٩، صـ٥٠١، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط الأولى، ١٤١٨هـ .

(١١٥) مفاتيح الغيب، جـ٣٢، صـ٢١٢.

ومن عدالة السماء أن كل الجنس البشري داخلٌ في أنه خُلِق في أحسن تقويم، قال تعالى:{لَقَدْ خَلَقْنَا الإنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ}[١١٦] ثم عذب بالنار من عصى، واستثني من النار الذين آمنوا وعملوا الصالحات، فلهم أجر غير مقطوع.

ومن جهات التناسب بين المقسم به والمقسم عليه، الإشارة إلى أن كلًا منهما من منن الله . تعالى . على خلقه، فالرسالات السماوية التي أقسم الله بأماكنها منةٌ من الله . تعالى . ؛ إذ هي منارات الهدى، وشارات النور الذي يهدي إلى صراط الله المستقيم، كما أنَّ خَلْق الإنسان في أحسن تقويم منةٌ أخرى، فالإنسان هو المخلوق الوحيد الذي كرمه الله . تعالى . ومجَّده، فبين المقسم به والمقسم عليه تناسب من ناحية أن كلًا منهما منة.

ومنها: بيان أن الله . تعالى . قبل أن يخلق الإنسان في أحسن تقويم، شرع له الشرائع السماوية التي تنظم حركته في الحياة، ليكون في أحسن تقويم خُلُقي، كما أنه في أحسن تقويم خِلْقِي، فأحسنُ الشرائع ما نزل من عند الله تعالى، أما القوانين الوضعية، والفلسفات البشرية، فيعتريها كثير من الهنوات والضلالات؛ لما فيها من الأهواء الشخصية، والنوازع النفسية.

ومنها: أن خلق الإنسان في أحسن تقويم، تهيئة له لقبول الدعوة إلى الشرائع السماوية، التي نزلت على عيسى وموسى ومحمد، والمشار إليها بمقاطع المقسم به، فالإنسان الذي خُلِق في أحسن تقويم، لديه من الرُّشد والقدرة على التمييز ما يجعله أهلًا للتكليف، إذ هو ميسر للهداية والغواية، قال تعالى: {وهديناه النجدين} أي: طريق الخير وطريق الشر، وله أن يختار، والإنسان في حاجة ماسة إلى شريعة سماوية يستقيم بها أمر حياته.

وهكذا نرى جهات التناسب تربط بين القسم وجوابه، إذ تمتد خيوط المعاني بينهما في نظم محكم مترابط، حتى نرى الكلام يأخذ بعضه بعناق بعض، بل حتى يبدو القسم وجوابه كالشيء الواحد، والخلق المجتمع، ولذلك أثر لا يخفى في نفوس أمة البلاغ.

- **التناسب بين أسلوب القسم وما قبله وما بعده:**

خُتِمت سورة: الشرح بالدعوة إلى الكدِّ والنَّصَب في الحياة الدنيا؛ ليبني الإنسان بذلك آخرته، قال تعالى: {فَإِذَا فَرَغْتَ فَانصَبْ . وَإِلَى رَبِّكَ فَارْغَبْ}[١١٧] وبُدِئَت سورة: التين بالقسم، لتقرير حقيقة الإنسان وتذكيره بوجوده، وأن الله سبحانه خلقه في أحسن تقويم، وأودع فيه القوى التي تمكِّن له من الاحتفاظ بهذه الصورة الكريمة، وأن يبلغ أعلى المنازل عند الله[١١٨]، فإذا كان الحق ـ سبحانه ـ أمر بمواصلة الطاعة والموالاة بين العبادات؛ رغبةً فيما عنده سبحانه،

---

(١١٦) سورة التين، الآية رقم: ٤ .

(١١٧) سورة الشرح، الآيتان: ٧، ٨ .

(١١٨) ينظر: التفسير القرآني للقرآن ، جـ١٦، صـ١٦١٢ .

فقد خلق الجنس الإنساني كله في أحسن تقويم عقلًا وجسدًا وأرسل له الرسل بالشرائع السماوية، التي تنظم حركة حياته؛ ليتمكن من فعل ما أمر به. فنهاية سورة الشرح منسجمة مع معنى أسلوب القسم في مطلع سورة التين، مما جعل النظم في غاية التماسك والترابط، حتى تبدو الآيات تنبئ عن معنى واحد، تتعاون الآيات بدلالاتها الجزئية لتأديته.

أما عن تناسب أسلوب القسم مع ما بعده، فإن القسم بمنابت الأنبياء، على أن الإنسان خلق في أحسن تقويم، ناسبه أن تَعْقُبه عاقبةٌ من أضاع تلك الهبة الربانية، وهي الخلق في أحسن تقويم، وفرَّط فيها، حتى أدركه الهَرَم وحاصره العمر، فأضاع نعمة كان بإمكانه أن يُحسن الإفادة منها، يقول تعالى: {ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ. إِلا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَلَهُمْ أَجْرٌ غَيْرُ مَمْنُونٍ}[(١١٩)] والمراد بـ[أسفل سافلين]: أرذل العمر، فالهَرِم يَخْرَف ويضعف سمعه وبصره وعقله وتقل حيلته، وَيَعْجِز عن عمل الصالحات، ولكن الذين كانوا صالحين من الهَرْمَى، فلهم ثواب دائم على طاعتهم وصبرهم على ابتلاء الله إياهم بالشيخوخة والهَرَم، وعلى مقاساة المشاق والقيام بالعبادة، وعلى تخاذل نهوضهم[(١٢٠)]. ثم تَستثني الآيات الذين آمنوا وعملوا الصالحات فأجرهم غير مقطوع.

وهكذا تتعاقب المعاني منسجمة، يجمع بينها خيط دلالي. وتلك خَصوصية اعتبرها البيان القرآني؛ لإيصال المعاني إلى قلوب المتلقين من أمة البلاغ، وقد جمع التناسب بينهما، ومثَّل رحمًا تجمعها في نسق تعبيري معجز.

---

(١١٩) سورة التين، الآيتان:٥، ٦ .

(١٢٠) ينظر: مفاتيح الغيب، جـ٣٢، صـ٢١٢، ٢١٣ .

المطلب الثالث:

بلاغة تناسب أسلوب القسم في فاتحة سورة العاديات

قال تعالى: {وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا . فَالْمُورِيَاتِ قَدْحًا . فَالْمُغِيرَاتِ صُبْحًا . فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا . فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا . إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ . وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ . وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ}[١٢١].

- **السياق الواقعي للقسم:**

روي: أنه" بعث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – سرية إلى حي من كنانة، واستعمل عليهم المنذر بن عمرو الأنصاري، فتأخر خبرهم، فقال المنافقون: قُتِلوا جميعًا، فأخبر الله . تعالى . عنها، فأنزل: {وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا} يعني: تلك الخيل"[١٢٢].

- **المقصد العام للسورة:**

يقول البقاعي: "ومقصودها: الإعلام بأن أكثر الخلق يوم الزلزلة هالك؛ لإيثار الفاني من العِزِّ والمال على الباقي عند ذي الجلال، المدلول عليه بالقسم، وهو العاديات، والمقسم عليه، وما عُطِف عليه، وقد عُلِم أن اسمها أدل شيء على ذلك"[١٢٣].

- **التناسب بين مقاطع المقسم به:**

قوله سبحانه: {وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا} قسم، جوابه: قوله تعالى: {إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ}، وقوله تعالى: {وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ} عطف على الجملة السابقة، وهو المقسم عليه الثاني، وقوله: {وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ} منسوق على ما تقدم وهو المقسم عليه الثالث[١٢٤].

إن المتأمل في القسم في مطلع سورة العاديات يستوقفه التناسب بين الآيات الكريمة المكوِّنة للمقسم به، فالسورة الكريمة بدأت بذكر عاديات الخيل، حيث قال تعالى: [والعاديات] ولما ذكر سبحانه وتعالى عَدْوها، أتبعه ما ينشأ عنه، فقال عاطفًا بأداة التعقيب [فالموريات] ؛ لأن العَدْو يتسبب عنه ويَتعقَّبُه الإيراء، ومعنى الموريات، أي: المخرِجات للنار بما يَصطك من سَنابكها بالأحجار، ولما كان الإيراءُ أَثَرَ القَدْح، قال: [قَدْحًا]، أي: تقدح ضربًا بعنف، ولما ذكر العَدْو ذكر نتيجته وغايته، فقال: [فالمغيرات] أي: بإغارة أهلها عليها عَدْوًا، ولما كانت الإغارة الكائن عنها الثُّبور والويل أروع ما تكون في أعقاب الليل، قال: [صبحًا] أي: ذات دخول في الصباح، ولما كان الأعداء حال الإغارة يكون مختلفًا كرًا وفرًا، فينشأ عنها الغبار الكثير؛ لإثارة الهواء له، قال سبحانه: [فأثرن به] أي: بفعل الإغارة ومكانها وزمانها من شدة العدو [نقعًا] أي: غبارًا، ولما كان المُغير يتوسط

---

(١٢١) سورة العاديات، الآيات من ١:٨ .

(١٢٢) أسباب نزول القرآن، صـ٤٦٣.

(١٢٣) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، جـ٣، صـ٢٣٧.

(١٢٤) ينظر: إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين درويش، جـ١٠، صـ٥٥٧، دار الإرشاد للشئون الجامعية - حمص، ط الرابعة، ١٤١٥هـ .

الجمع عند اختلال حالهم فيفرق شملهم، قال: [فوسطن به]، أي: بذلك النقع أو الفعل والوقت والموضع، [جمعًا]، أي: فدخلت في وسط ذلك الجمع؛ لشجاعتها وقوتها وطواعيتها وشجاعة فرسانها[١٢٥]. والمتأمل في بنية صورة المقسم به وما عُطف عليه، يلحظ تناسب المعاني، بحيث تمثل مجتمعةً نظمًا تتراص خرزاته واحدة تلو جارتها، في انسجام وتآخٍ، يجعل تلك المعاني تقع في قلب المتلقي، وتسري في وجدانه كالكل المجتمع.

وفي المخالفة بين المعطوف والمعطوف عليه بقوله: {فأثرن به نقعا} إذ عُطِف الفعل على الاسم الذي هو العاديات، سر بديع، وهو تصوير هذه الأفعال في النفس وتجسيدها أمام العين، فإن التصوير يحصل بإيراد الفعل بعد الاسم؛ لما بينهما من التخالف، وهو أبلغ من التصوير والتجسيد بالأسماء المتناسقة[١٢٦].هذا، وقد ربطت الفاء العاطفة بين مقاطع المقسم به وما عطف عليه، فقوَّت لُحمة المقاطع، وشدَّت عراها، ونقلت للمتلقين جو المعركة، وحركيَّة المشهد، وسرعة الأحداث وتعاقبها، وحالة الكر والفر التي تظلل ساحة الوغى، ولا شك أن مجيء الفاء في كل المقاطع المعطوفة على المقسم به شكل صورة من صور التناسب.

ومن مظاهر التناسب بين المقسم به، مجيء صيغ الفواصل على هيئات متشابهة، حيث أتت "صيغة الفواصل في السورة بسكون الوسط والتنوين: [ضبْحًا قدْحًا صبْحًا نقْعًا جمْعًا] مما يناسب مقام الغضب، ومعاني الزَّجر والوعيد، فكأن الكلمات قذائف تُخْتَم بها الآيات قصيرة المدى: {وَالْعادِياتِ ضَبْحًا، فَالْمُورِياتِ قَدْحًا، فَالْمُغِيراتِ صُبْحًا، فَأَثَرْنَ بِهِ نَقْعًا. فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا}"[١٢٧]، ففي ذلك من التناسب الصوتي ما جعل شكَّل صورة من التناسب الصوتي، أسهمت في إحداث الانسجام والتآخي بين مقاطع المقسم به وما عطف عليه.

- **التناسب بين المقسم به والمقسم عليه:**

اختلفت تفاسير العلماء للمقسم به في سورة العاديات، وعليه تنوعت جهات التناسب بين القسم وجوابه، وذلك كما يلي:

أولًا: يقول الطاهر بن عاشور: "وإن أريد بالعاديات وما عطف عليها خيل الغزاة، فالقسم بها لأجل التهويل والترويع؛ لإشعار المشركين بأن غارة تترقبهم، وهي غزوة بدر، مع تسكين نفس النبيء . صلى الله عليه وسلم . من التردد في مصير السرية التي بعث بها مع المنذر بن عمرو. إذا صح خبرها . فيكون القسم بخصوص هذه الخيل إدماجًا للاطمئنان"[١٢٨] وعليه فيكون تناسب المعاني جليًا بين المقسم به والمقسم

---

(١٢٥) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، جـ٢٢، صـ٢١٢وما بعدها .

(١٢٦) ينظر: إعراب القرآن وبيانه، جـ١٠، صـ٥٥٩ .

(١٢٧) ينظر: جماليات المفردة القرآنية، أحمد ياسوف، صـ٢٣١، دار المكتبي . دمشق، بدون تاريخ.

(١٢٨) تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، جـ٣٠، صـ٥٠٢ .

عليه في قوله تعالى: {إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ . وَإِنَّهُ عَلَى ذَلِكَ لَشَهِيدٌ . وَإِنَّهُ لِحُبِّ الْخَيْرِ لَشَدِيدٌ}[١٢٩] حيث أتى المقسم عليه بخبر يؤكِّد أن الإنسان جاحدٌ لربه، مستمر في جحوده حتى يأتيه العذاب، فيُفيق من غفلته، ولكن هيهات هيهات!! وفي صورة المقسم به وما تحمله من مشاهد القتال المتلاحم، والمعركة الدائرة، والخيل العادية، مثيرة لمُثار النقع الذي يكسو ساحة الوغى، ما يلائم توكيد الجواب باسمية الجملة، وتصديرها بـ[إنَّ] التي تساق في السياقات التي تحتاج إلى فيض من توكيد المعنى، فضلًا عن اللام الداخلة على الخبر، وإلى جوار ذلك تكرار أدوات التوكيد مرتين مع الجملتين المعطوفتين على قوله تعالى: {إِنَّ الإِنسَانَ لِرَبِّهِ لَكَنُودٌ}، ففي ذلك تناسب بين توكيد المقسم به بالصور البصرية والسمعية والشمية وعناصرهن المكوِّنة لهن من خيل تركض، حتى يعلو صوت ضبحها، وسنابك الخيل التي تُثير الحصى حتى تقدحه فتوريه، فتُغير تلك الخيل في الصباح، حيث الغفلة وعدم التهيُّؤ للقتال، والغبار الذي يُغطي الساحة، والناس الكُثُر تتوسطهم تلك الخيل، كل ذلك ينسجم مع التوكيد في الجواب.

إن من الظلال الدلالية لنظم القسم وجوابه، الإشارة إلى أن الإنسان يظل كفورًا متماديًا في طغيانه، على الرغم من أن الموت وما يستتبعه، يمكن أن يُباغته في سرعة ومفاجأة، كما في مشهد الخيل السريعة العدو، التي تضبح من شدة العدو وسرعته، وتضرب بسنابكها الحصى الذي ينقدح موريًا الشرر من أثر السرعة، وهي إذ تُغير تكون إغارتها وقت الصبح، فتثير الغبار، وتتقدم حتى تتوسط المعركة[١٣٠] ففي صورة القسم استعارة تمثيلية، حيث صور البيان القرآني حال من يلاحقه الموت بسرعة عاتية، وهو لاهٍ غير مكترث بذلك، بحال خيل معركة تُقبل مسرعة، يُسمع صوت ضبحها، ويُرى شرر من أثر سنابكها، وهي تُغير صبحًا فجأة، فتثير غبارًا، فتتوسط الوغى، وفي الصورة الاستعارية إيجاز قصر، حيث اختصرت الاستعارة الكلام اختصارًا، فأدت الكثير من المعاني، في صورة لفظية موجزة، فالاستعارة "تعطيك الكثير من المعاني، باليسير من اللفظ، حتى تُخرج من الصدفة الواحدة عدة من الدرر، وتجني من الغصن الواحد أنواعًا من الثمر"[١٣١].

ثانيًا: المراد بقوله تعالى: {وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا} إبلُ الحجاج، التي تضبح، فتقدح الحصى بمناسمها، فَتُورِي النَّارَ، فتُسرع في السير كأنها تُغير، فتثير الغبار مسرعةً إلى أرض المشاعر، وعلى هذا التقدير، فوجه القسم به كأنه تعريض بالآدمي الكنود، فكأنه تعالى يقول: إني سخرتُ مثل هذا لكَ، وأنتَ متمردٌ عن طاعتي، وفيه تعريض لمن يرغب عن الحج، فإن الكنود هو الكفور، والذي لم يحج بعد الوجوب موصوف

---

(١٢٩) سورة العاديات، الآيات: من ٦:٨ .

(١٣٠) ينظر: التفسير البياني للقرآن الكريم، جـ١، صـ١٠٦وما بعدها.

(١٣١) أسرار البلاغة، الإمام/ عبدالقاهر الجرجاني، تح/ محمود محمد شاكر، صـ٤٣، مطبعة المدني - القاهرة، دار المدني - جدة، بدون تاريخ.

بذلك[١٣٢]، فمن جحود الإنسان، وشهوده على هذا الجحود، وحبه المفرط للمال، الامتناعُ عن البذل في أداء الرحلة المباركة، وعدم تأثره بمشاهد الحجاج، يحدوهم الشوق والتلهف لزيارة البيت العتيق، وتلبية أذان سيدنا إبراهيم . عليه السلام . فبينما الحجاج على رواحلهم يستحثونها على العدو؛ شوقًا للبيت وأنواره، فتضبح رواحلهم حتى يُسمع صوتها، وتتفي بمناسمها الحصوات حتى تُوري الشرر بالقدح، كل ذلك حتى تصل الرحلة إلى منبع الأنوار والأسرار، ويتوسط الحجاج زوار الرحمن.

ثالثًا: المراد بقوله تعالى: {وَالْعَادِيَاتِ ضَبْحًا} "أن الله . تعالى ذكره . أقسم بالموريات التي توري النيران قدحًا؛ فالخيل توري بحوافرها، والناس يورونها بالزَّند، واللسان – مثلًا – يوري بالمنطق، والرجال يورون بالمكر – مثلًا –، وكذلك الخيل تهيج الحرب بين أهلها، إذا التقت في الحرب، ولم يضع الله دلالة على أن المراد من ذلك بعض دون بعض، فكل ما أورت النار قدحًا، فداخلة فيما أقسم به، لعموم ذلك بالظاهر"[١٣٣]. وعلى هذا التفسير فجهة التناسب بين القسم وجوابه، جحود الإنسان بعد وقوفه على دلائل قدرة الله . تعالى . وآياته في مخلوقاته، التي تنوعت صورها، وتعددت مظاهرها.

رابعًا: "ويحتمل أن يكون القسم بالنفوس العادية أثر كمالهنَّ، الموريات بأفكارهن أنوار المعارف، والمغيرات على الهوى والعادات، إذا ظهر لهن مثل أنوار القُدُس، فَأَثَرْنَ بِهِ شوقاً، فَوَسَطْنَ بِهِ جَمْعًا من جموع العليين"[١٣٤]. وهذا القول موغل في التأويل، مُحلِّق في عالم الوجدانيات، إنها قبسات من روح المعاني، ولكن ليس هناك ما يمنع هذا المعنى، بل ليس في السياق، أو المساق أو المقصد العام للسورة أو للقرآن الكريم كله ما يمنع إرادة هذا المعنى، والله أعلم بمراده، وعلى هذا المعنى فجهة التناسب بين المقسم به والمقسم عليه، أن الإنسان جحود لما أعطاه الله من مدد روحي، وفتح وجداني، ولذة في عالم الأنس بالذات العلية، تلك العطية التي لا يُدرك لذائذها إلا من ذاق فعرف.

وبهذا تتنوع جهات التناسب بتنوع العطاء الدلالي للصورة اللفظية للقسم.

- **التناسب بين أسلوب القسم وما قبله وما بعده:**

العلاقة بين سورتي: الزلزلة والعاديات علاقة تناسب وتماسك وانسجام؛ لما بينهما من تشابه؛ "ففي ميدان الحرب، حساب وجزاء، وربح وخسران وهول وفزع، يشمل المحاربين جميعًا، فالحرب وميدانها في الدنيا، هي أقرب شيء يمثَّل به المحشر، والحساب، والجزاء في الآخرة، ولهذا جاءت سورة العاديات تالية سورة الزلزلة، لهذه المشابة التي بينهما"[١٣٥].

---

[١٣٢] ينظر: مفاتيح الغيب، جـ٣٢، صـ٢٥٨.

[١٣٣] جامع البيان في تأويل القرآن، جـ٢٤، صـ٥٦١.

[١٣٤] أنوار التنزيل وأسرار التأويل، جـ٥، صـ٣٣١.

[١٣٥] التفسير القرآني للقرآن ، جـ ١٦، صـ١٦٥٤ .

يقول تعالى في ختام سورة الزلزلة: {وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ}[١٣٦]، يقول البقاعي عن علاقة فاتحة سورة العاديات بختام سورة الزلزلة: لما خَتَم الزلزلة بالجزاء على أعمال الشر يوم الفصل، افتتح هذه ببيان ما يَجُرُّ إلى تلك الأعمال من الطَّبْع، وما ينجر إليه ذلك الطبع، موبخًا من لا يستعد لذلك اليوم بالاحتراز التام من تلك الأعمال، معنفًا من آثر دنياه على أخراه، مقسمًا بما لا يكون إلا عند أهل النِّعَم الكبار الموجِبَة للشكر، فمن غلب عليه الروح شكر، ومن غلب عليه الطبع – وهم الأكثر – كفر فقال: {والعاديات} أي الدواب التي من شأنها أن تجري بغاية السرعة[١٣٧]، ويمكن أن يقال: إنه سبحانه وتعالى لما ختم سورة الزلزلة ببيان عاقبة من يعمل خيرًا ومن يعمل شرًا، افتتح سورة العاديات بالقسم بالخيل وما صاحبها من أحوال؛ ليصور سرعة إقبال العقاب وأسبابه، وفي ذلك ما يدفع أمة البلاغ للمسارعة في الخير، والإقلاع عن الشر.

هذا، ويتلو القسم وجوابه، قوله تعالى: {أَفَلا يَعْلَمُ إِذَا بُعْثِرَ مَا فِي الْقُبُورِ}[١٣٨] فبعد أن أكد الجواب على جحود الإنسان "فُرِّع على الإخبار بكُنُود الإنسان وشُحِّه، استفهامٌ إنكاريٌّ عن عدم علم الإنسان بوقت بعثرة ما في القبور، وتحصيل ما في الصدور، فإنه أمر عجيب كيف يغفُل عنه الإنسان"[١٣٩]، إذ كيف يجحد الإنسان ربه، وهناك يوم بعثرة القبور الذي لا مناص منه؟!!

---

(١٣٦) سورة الزلزلة، الآية رقم: ٨ .

(١٣٧) ينظر: نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، جـ٢٢، صـ٢١٠ .

(١٣٨) سورة العاديات، الآية: ٩ .

(١٣٩) تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، جـ٣٠، صـ٥٠٦.

المبحث الثالث:

بلاغة تناسب أسلوب القسم في سورة العصر

ذات المقسم به المنفرد

بالنظر في المقسم به في فواتح سور الحزب الأخير من القرآن الكريم، نرى سورة واحدة هي تلك التي أقسم الحق ـ سبحانه ـ في فاتحتها بمقسم به منفرد، وهي سورة العصر، ولا شك أن اعتبار البيان القرآني لتلك الخصوصية، تكمن وراءه أسرار ومذاقات، وفيما يلي بيان ذلك.

- **المقصد العام للسورة:**

يقول البقاعي: "ومقصودها: تفضيل نوع الإنسان المخلوق من علق، وبيان خلاصته وعُصارته، وهم الحزب الناجي يوم السؤال، عن زكاة الأعمال بترك الفاني، والإقبال على الباقي؛ لأنه خلاصة الكون، ولباب الوجود، واسمها العصر واضح في ذلك، فإن العصر يُخلِّص روح المعصور، ويميز صفاوته، ولذلك كان وقت هذا النبي الخاتم، الذي هو خلاصة الخلق – صلى الله عليه وسلم – وقتَ العصر، وكانت صلاة العصر أفضل الصلوات"[١٤٠]. ويمكن أن يقال: إن المقصد العام للسورة، بيان خسران الإنسان الذي لم يستثمر عمره في الطاعات، حتى لاحقه وقت نهايته، فحانت ساعة عصره، فأدركه الموت أو الهَرَم، فعجز عن استداك ما فاته.

- **المقسم به، ودلالته:**

يقول تعالى: {وَالْعَصْرِ. إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ}[١٤١].

لعل مما يستلفت النظر مجيء المقسم به منفردًا في سورة العصر دون غيرها، في قوله تعالى: {والعصر} فوقت العصر الذي يأتي بعد رائعة النهار، والشمس الفتية، والضحى الطاغي بالضوء الذي يعم الأرجاء، والأحداث المتلاحقة، وما يرمز إليه ذلك العصر من انتهاء حياة الإنسان بالموت، والذي هو حقيقة الحقائق التي لا ريب فيها، فهو في كل يوم يقتحم على الناس بيوتهم، ويجنى أرواحهم، ويهدم آمالهم!! ولعل في ذلك إشارة إلى أن وقت عصر حياة الإنسان بما فيه من عظة واعتبار يكفي وحده مقسمًا به، إنه الحقيقة الكبرى!!

- **التناسب بين المقسم به والمقسم عليه:**

تتعدد جهات التناسب بين القسم وجوابه بتعدد تفسيرات قوله تعالى: {وَالْعَصْرِ}، حيث فُسر العصر في قوله تعالى: {وَالْعَصْرِ} بتفسيرات أخذت اتجاهين:

أولها: تفسير العصر بآخر النهار، وعصر الدنيا، يقول النيسابوري: "العصر هو آخر

---

(١٤٠) مصاعد النظر للإشراف على مقاصد السور، جـ٣، صـ٢٤٦ .

(١٤١) سورة العصر، الآيتان: ١ ،٢.

النهار، أقسم الله به كما أقسم بالفجر والضحى؛ لأن آخر النهار يُشبه تخريب العالم وإماتة الأحياء، كما أن أول النهار يشبه بعث الأموات وعمارة العالم، فعند ذلك إقامة الأسواق ونصب الموازين ووضع المعاملات، وفيه إشارة إلى أن عمر الدنيا ما بقي إلا بقدر ما بين العصر إلى المغرب، فعلى الإنسان أن يشتغل بتجارة لا خسران فيها؛ فإن الوقت قد ضاق، وقد لا يمكن تدارك ما فات"[١٤٢]. وفي تفسير المقسم به (العصر) بآخر النهار، ما يكشف اللثام عن جهة التناسب بين المقسم به والمقسم عليه في قوله تعالى: {وَالْعَصْرِ. إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ}[١٤٣] فالمقسم به يرمز لنهاية نعيم الحياة ولذائذها، والمشار إليه في ختام سورة التكاثر، يقول تعالى: {ثم لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ}[١٤٤] فإذا كان وقت العصر زمنًا لضعف الشمس، وخفوت الضوء الذي كان يملأ الأرجاء، فكذلك الإنسان الذي قد يغره النعيم المؤقت في دار البلاء، فيتجبر وينشغل بالممر عن المستقر.

وأقسم بالعصر على : { إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ}[١٤٥] أي: جنس الإنسان في خسر؛ لأن وقت النهاية يلاحقه وهو لاهٍ، ولما كانت الحقائق الكبرى يلائمها أن تساق مؤكَّدة بمؤكِّدات تطابق الحال، ولما كانت حقيقة خسران الإنسان مما يغيب عنه في غمرة الحياة الدنيا ولذائذها، كانت البلاغة ما أتى به بيان القرآن من نظم معجز للقسم وجوابه، فالقسم ذاته توكيد وجوابه يحمل عدة مؤكدات، فقد أكد البيان القرآني جواب القسم: {إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ} بعدة مؤكِّدات اقتضاها المقام، فلا يخفى ما في: [إنَّ] ولام التأكيد الداخلة على الخبر، ولفظة: [في]، وتنكير لفظة: [خسر] من المؤكدات التي أفادت التهويل، فكأنه تعالى أثبت للعاصي جهات الخُسر كلها.

ثانيها: تفسير العصر بالدهر وما يقع فيه[١٤٦]. وتفسير العصر بصلاة العصر، يقول الزمخشري: "أقسم بصلاة العصر لفضلها...ولأنَّ التكليف في أدائها أشق؛ لتهافت الناس في تجاراتهم ومكاسبهم آخر النهار، واشتغالهم بمعايشهم"[١٤٧]. وتفسير العصر بعصر النبي . صلى الله عليه وسلم . حيث "أقسم بعصر النبي . صلى الله عليه وسلم . أو بزمانه الذي هو عصر نهار الدنيا"[١٤٨]. وتفسير العصر بعصر الإسلام، فـ"يجوز أن يراد عصر الإسلام كله، وهو خاتمة عصور الأديان لهذا العالَم"[١٤٩].

---

(١٤٢) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، جـ٦، صـ٥٥٩ .

(١٤٣) سورة العصر، الآيتان: ١ ،٢.

(١٤٤) سورة التكاثر، الآية: ٨ .

(١٤٥) سورة العصر، الآية: ٢.

(١٤٦) ينظر: جامع البيان في تأويل القرآن، جـ٢٤، صـ٥٨٩، والوسيط في تفسير القرآن المجيد، جـ٤، صـ٥٥١ .

(١٤٧) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، جـ٤، صـ ٧٩٣ .

(١٤٨) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، جـ٦، صـ٥٥٩.

(١٤٩) تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، جـ٣٠، صـ٥٣٠ .

المقسم به في كل ذلك زمن، والقسم بالزمن على الجواب: {إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ} يكشف سر الخُسْر الذي يحيط بالإنسان من كل جانب، وهو تضييع الزمن وعدم استثماره في الطاعة والاغترار بطول الأجل. كذلك يكون التناسب بين القسم وجوابه على تلك التفاسير، أنه قسم بعظيم على أمر عظيم؛ توكيدًا للمعنى، حتى يستقر في أخلاد المتلقين.

- **التناسب بين أسلوب القسم وما قبله وما بعده:**

لما ختمت سورة التكاثر بتوكيد رؤية الجحيم رؤية يقينية، ثم السؤال عن النعيم، أتت سورة العصر مستهَلَّة بالقسم بوقت العصر الذي هو وقت النهاية بعد صحوة الضحى، واكتمال ضوء النهار؛ إيماءً لنهاية الدنيا، وذهاب نعيمها الذي ضيعه الإنسان، بلا استثمار أمثل له. يقول الرازي: "والعصر أي: عصر الدنيا، قد دنت القيامة وأنت بعد لم تستعد، وتعلم أنك تُسأل غدًا عن النعيم الذي كنت فيه في دنياك"[١٥٠].

وبعد أسلوب القسم يُستثنى من الخسران، الذين آمنوا وعملوا الصالحات، ولم يتوقفوا عند ذلك، وإنما تجاوزه إلى التواصي بالحق، فنالهم إيذاء الناس فصبروا عليه، فلم يسلموا من الهمزة اللمزة فتوعد الله الهمزة اللمزة، قال تعالى: {وَيْلٌ لِّكُلِّ هُمَزَةٍ لُّمَزَةٍ}[١٥١].

إن التناسب رابط يوثق عرى الآيات والسور، بل يحكي انسجام القرآن الكريم، وتماسك معانيه.

---

(١٥٠) مفاتيح الغيب، جـ٣٢، صـ٢٧٨.

(١٥١) سورة الهمزة، الآية رقم: ١.

الخاتمـــة

وفيها أهم النتائج التي وقفت عليها الدراسة:

في افتتاح السور بالقسم تمهيد للنفس الإنسانية، لتلقي الجواب.

- في حذف جواب القسم إثارة للفكر، وتحريك للعقل، ودعوة للتدبر والبحث؛ ركضًا وراء إدراك الجواب المطوي.
- أتى أسلوب القسم متماسكًا تمتد خلال سَداه ولُحمته خيوط التناسب، حتى يبدو محكم النسج، مما يجعل صورة معناه، والتي اكتساها أسلوب القسم، تقع في سمع المخاطب ورُوعه وقلبه، كالكل المجتمع، الذي تتداخل لبناته وتتماسك، وفي ذلك من التأثير والإمتاع والإقناع ما لا يخفى.
- في القسم جمع بين الأسلوبين الإنشائي بالقسم، والخبري بجوابه، وفي ذلك ما لا يخفي من التأثير في النفس الإنسانية في المقامات والسياقات التي اقتضت ذلك.
- صورة المقسم به قد تأتي صورة استعارية تمثيلية تجاوز الوضع اللغوي إلى آفاق دلالية أخرى من المجاز، الذي يحمل من المعاني ما يناسب المقسم عليه.
- يقسم القرآن بالمحسوسات من الأمكنة والأزمنة والثمار والإنسان والحيوان على السمعيات والغيبيات؛ لنتدرج من المُشاهَد بالعِيان إلى المُدْرَك بالعقل، وفي ذلك من التوكيد والتأثير والإقناع بوقوع الغيبيات ما لا يخفى.
- يسوق بيان القرآن الحقيقة الغيبية المقسم عليها محاطةً بالأدلة، حيث تسبقها محسوسات مشاهدة العِيان، ويليها نبأ من أنباء الأمم السابقة كما في سورة الفجر والشمس، أو واقع حدث للنبي الكريم ـ صلى الله عليه وسلم ـ كما في سورة الضحى.
- أتى المقسم به المتعدد متناسبًا إما بالتوافق أو التضاد، حسب مقتضيات الأحوال والسياقات.
- القسم وجوابه بينهما وبين المقصد العام للسورة جهات من التناسب تتكشف بإطالة التأمل وإدمان النظر.
- السور التي افتتحت بالأقسام في الحزب الأخير كلها مكية، وفي ذلك ما يلائم خَصوصيات القرآن المكي، وما فيه قضايا العقيدة الإيمانية، وترسيخ أصول الإيمان في القلوب، والتي يلائمها القسم، لما له من خَصوصيات ترسيخ الأفكار، وتوكيد الأخبار، فضلًا عن مناسبة القسم لحال المخاطَبين في تلك الفترة المكية، وما نالهم من إيذاء واعتداء من المشركين.
- أكد التناسب بين القسم وجوابه على فكرة تماسك بنية النظم القرآني، ويتجلى ذلك التناسب والتماسك بالإدراك البلاغي.
- يُسهم الوقوف على أسباب النزول أو السياق الواقعي للسور في الكشف عن أسرار التناسب.
- المقسم به أتى متناسبًا هو الآخر، فلم يقتصر التناسب على القسم وجوابه.
- أتى المقسم به منفردًا في سورة العصر دون غيرها، في قوله تعالى: {والعصر} ولعل في ذلك إشارةً إلى أن وقت عصر حياة الإنسان

بما فيه من عظة واعتبار يكفي للقسم به وحده، فالموت حقيقة الحقائق، فلا ريب يأتيه؛ فهو في كل يوم يقتحم على الناس بيوتهم، ويجنى أرواحهم، ويهدم آمالهم!!

- قد يطلق القسم ويراد به التعريض، أو التمثيل، أو الرمز، وفي ذلك من الخِلابة والتأثير ما لا يخفى.
- قد يطول القسم فتزاد النفس تشوُّقًا لاستقبال الجواب، فإذا ما أتى كانت النفس ممهدة لاستقباله، فيكون له معها أثر، وذلك في المقامات والسياقات التي اقتضت ذلك.
- تنوعت ألوان التناسب في مطالع السور، فكان التناسب بين المعاني، والتناسب بين الألفاظ، والتناسب بالنغم، والتناسب بالمقدار بين آيات القسم فلا تجد آية طويلة مع آية قصيرة، إنما هي مقاطع صوتية متناسبة مما حقق انسجام النظم، وتماسك أجزائه.
- لا يقف التناسب عند حد أسلوب القسم إنما يمتد فيتناسب أسلوب القسم مع ما قبله وما بعده.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١) أسباب نزول القرآن، الواحدي، تح/ عصام بن عبد المحسن الحميدان، دار الإصلاح ـ الدمام، ط الثانية، ١٤١٢هـ.

٢) أسرار البلاغة، الإمام/ عبدالقاهر الجرجاني، تح/ محمود محمد شاكر، مطبعة المدني ـ القاهرة، دار المدني ـ جدة، بدون تاريخ.

٣) إعراب القرآن وبيانه، محيي الدين درويش، دار الإرشاد للشئون الجامعية ـ حمص، ط الرابعة، ١٤١٥هـ .

٤) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، البيضاوي، تح/ محمد عبد الرحمن المرعشلي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ط الأولى، ١٤١٨هـ.

٥) إيجاز البيان عن معاني القرآن، أبوالقاسم النيسابوري، تح: الدكتور/ حنيف بن حسن القاسمي، دار الغرب الإسلامي ـ بيروت، ط الأولى، ١٤١٥هـ .

٦) البحر المحيط في التفسير، أبو حيان، تح/ صدقي محمد جميل، دار الفكر ـ بيروت،١٤٢٠هـ .

٧) البرهان في تناسب سور القرآن، الغرناطي، تح/ محمد شعباني، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية . المغرب، ١٤١٠ هـ .

٨) البرهان في علوم القرآن، تح/ محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية، ط الأولى، ١٣٧٦هـ.

٩) بغية الإيضاح لتلخيص المفتاح في علوم البلاغة، للشيخ/ عبد المتعال الصعيدي، مكتبة الآداب . القاهرة، ط السابعة عشرة، ٢٠٠٥م

١٠) التبيان في إعراب القرآن، العكبري، تح/ علي محمد البجاوي، عيسى البابي الحلبي، بدون تاريخ.

١١) التبيان في أيمان القرآن، ابن القيم، تح/ عبد الله بن سالم البطاطي، دار عالم الفوائد . مكة المكرمة، ط الأولى، ١٤٢٩هـ .

١٢) تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد، ابن عاشور، الدار التونسية للنشر ـ تونس، ١٩٨٤هـ .

١٣) تفسير القرآن الحكيم، المشهور بـ[تفسير المنار]، محمد رشيد رضا، الهيئة المصرية العامة للكتاب . القاهرة،١٩٩٠م.

١٤) التفسير القرآني للقرآن، عبد الكريم يونس الخطيب، دار الفكر العربي ـ القاهرة، بدون تاريخ.

١٥) التفسير والمفسرون، د/ محمد السيد حسين الذهبي، مكتبة وهبة ـ القاهرة، بدون تاريخ.

١٦) جامع البيان في تأويل القرآن، الطبري، تح/ أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، ط الأولى، ١٤٢٠هـ.

١٧) الجامع لأحكام القرآن، تح/ أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، ط الثانية،١٣٨٤هـ .

١٨) الجدول في إعراب القرآن الكريم، محمود صافي، دار الرشيد ـ دمشق، مؤسسة الإيمان ـ بيروت، ط الرابعة، ١٤١٨هـ .

١٩) جماليات المفردة القرآنية، أحمد ياسوف، دار المكتبي ـ دمشق، بدون تاريخ.

٢٠) خصائص الحروف العربية ومعانيها، د/ حسن عباس، منشورات اتحاد الكتاب العرب، ١٩٩٨م .

٢١) دلائل الإعجاز، تح/ محمود شاكر، مطبعة المدني . القاهرة – دار المدني . جدة، ط الثالثة، ١٤١٣هـ .

٢٢) ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، ابن خلدون، تح/ خليل شحادة، دار الفكر ـ بيروت، ط الثانية، ١٤٠٨هـ .

٢٣) سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي، ط دار الكتب العلمية . بيروت، ط الأولى، ١٩٨٢م .

٢٤) على طريق التفسير البياني، د/ فاضل صالح السامرائي، النشر العلمي . جامعة الشارقة، بدون تاريخ.

٢٥) غرائب القرآن ورغائب الفرقان، نظام الدين النيسابوري، تح: الشيخ/ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية ـ بيروت، الأولى، ١٤١٦هـ.

٢٦) الكتاب، سيبويه، تح/ عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي ـ القاهرة، ط الثالثة، ١٤٠٨ هـ .

٢٧) الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل، الزمخشري، دار الكتاب العربي ـ بيروت، ط الثالثة، ١٤٠٧ هـ .

٢٨) لسان العرب، ابن منظور، دار صادر ـ بيروت، ط الثالثة، ١٤١٤هـ.

٢٩) لمسات بيانية في نصوص من التنزيل، د/ فاضل صالح السامرائي، دار عمار للنشر والتوزيع ـ عمان ـ الأردن، ط الثالثة، ١٤٢٣هـ.

٣٠) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الأثير، تح/ أحمد الحوفي، بدوي طبانة، دار نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع . القاهرة، بدون تاريخ.

٣١) محاسن التأويل، للقاسمي، تح/ محمد باسل عيون السود، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط الأولى، ١٤١٨هـ .

٣٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، ابن عطية، تح/ عبد السلام عبد الشافي محمد، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط الأولى، ١٤٢٢هـ.

٣٣) مختار الصحاح، الرازي، تح/ يوسف الشيخ محمد، المكتبة العصرية – الدار النموذجية . بيروت، ط الخامسة، ١٤٢٠هـ .

٣٤) المصباح المنير في غريب الشرح الكبير، الفيومي، ط دار الكتب العلمية ـ بيروت، بدون تاريخ.

٣٥) معاني القرآن وإعرابه، الزجاج، تح/ عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب ـ بيروت، ط الأولى، ١٤٠٨هـ.

٣٦) معاني القرآن وإعرابه، مكتبة المعارف ـ الرياض، ط الأولى، ١٤٠٨هـ.

٣٧) مفاتيح الغيب، الرازي، دار إحياء التراث العربي ـ بيروت، ط الثالثة،١٤٢٠هـ .

٣٨) المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، تح/ صفوان عدنان الداودي، دار القلم ـ بيروت، الدار الشامية . دمشق ـ ، ط الأولى، ١٤١٢ هـ .

٣٩) مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزُّرْقاني، مطبعة عيسى البابي الحلبي، ط الثالثة، بدون تاريخ.

٤٠) النبأ العظيم نظرات جديدة في القرآن الكريم، د/ محمد عبد الله دراز، دار القلم للنشر والتوزيع، ١٤٢٦هـ.

٤١) النظم البلاغي بين النظرية والتطبيق، د/ إسماعيل الجناجي، ط دار الطباعة المحمدية . القاهرة، ط الأولى، ١٤٠٣هـ.

٤٢) نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، البقاعي، دار الكتاب الإسلامي ـ القاهرة، بدون تاريخ.

٤٣) الوسيط في تفسير القرآن المجيد، الواحدي، تح: الشيخ /عادل أحمد عبد الموجود، الشيخ/ علي محمد معوض، الدكتور/ أحمد محمد صيرة، الدكتور/ أحمد عبد الغني الجمل، الدكتور/ عبد الرحمن عويس، دار الكتب العلمية ـ بيروت، ط الأولى، ١٤١٥ هـ .

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
المقدمة.	٨٤
التمهيد: تحرير المصطلحات، ومهاد نظري .	٨٦
المبحث الأول: بلاغة تناسب أسلوب القسم في فواتح السور ذوات الأقسام المبنية على التضاد.	٩٠
المطلب الأول: بلاغة تناسب أسلوب القسم في فاتحة سورة الفجر.	٩٠
المطلب الثاني: بلاغة تناسب أسلوب القسم في فاتحة سورة الشمس.	٩٥
المطلب الثالث: بلاغة تناسب أسلوب القسم في فاتحة سورة الليل.	١٠١
المطلب الرابع: بلاغة تناسب أسلوب القسم في فاتحة سورة الضحى.	١٠٥
المبحث الثاني: بلاغة تناسب أسلوب القسم في فواتح السور ذوات الأقسام المبنية على التوافق	١٠٩
المطلب الأول: بلاغة تناسب أسلوب القسم في فاتحة سورة البلد.	١٠٩
المطلب الثاني: بلاغة تناسب أسلوب القسم في فاتحة سورة التين.	١١٣
المطلب الثالث: بلاغة تناسب أسلوب القسم في فاتحة سورة العاديات.	١١٧
المبحث الثالث: بلاغة تناسب أسلوب القسم في سورة العصر ذات المقسم به المنفرد.	١٢٢
الخاتمة.	١٢٥
فهرس المصادر والمراجع.	١٢٧
فهرس الموضوعات.	١٣٠